الباب العشرون

الحياة والفكر فى القرن الثانى

٩٦ – ١٩٢ م

الفصل الأول

تاستس

لقد حررت سياسة نيرفا وتراجان عقل رومة المكبوت ، وبعثت فى أدب عهديهما روح التمرد الشديد على الطغيان الذى ولى ولكنه قد يعود إلى سابق عهده . ولقد عبر پلنى فى تقريظه عن هذا الشعور بترحيبه بأول الأباطرة الثلاثة حين جلس على العرش ؛ وقلما كان چوڤنال يتغنى بشىء آخر غير مديحهم ، ولم يكن لتاستس أنبه المؤرخين من عمل إلا التنديد بالأيام الخوالى ، والتشنيع بقلمه على ذلك القرن من الزمان .

ولسنا نعرف متى ولد تاستس أو أين ولد ، بل إننا لا نعرف اسمه الأول ؛ وأكبر الظن أنه كان ابن كورنليس تاستس الذى وكل إليه الإشراف على إيرادات الإمبراطورية ، فى غالة البلچيكية . وبفضل ما ناله هذا الرجل من الرقى فى المناصب الحكومية ، ارتفعت الأسرة من طبقة الفرسان إلى طبقة الأرستقراطية الجديدة . وأول حقيقة مؤكدة نعرفها عن هذا المؤرخ هى قوله : « اتفق أجركولا فى عام قنصليته (٧٨) . . . على أن يزوجنى ابنته ، التى كانت بلاريب تتطلع إلى صلة أرقى من هذه »[٢] وكان قد

تلقى ما يتلقاه الناس عادة من تعليم ، وأتقن الفنون الخطابية التى تجعل أسلوبه ذا بهجة ورواء ، وحذق طريقة إيراد الحجج المؤيدة والمعارضة التى يمتاز بها ما فى تواريخه من خطب . وكثيراً ما استمع إليه پلنى الأصغر فى المحاكم ، وأعجب بفصاحته وألفاظه الجزلة وسماه أعظم خطباء رومة(٣) . وعين تاستس پريتوراً فى عام ٨٨ ، وأصبح من ذلك الوقت عضواً فى مجلس الشيوخ . وجدير بالذكر أنه يعترف على نفسه ذلك الاعتراف المخجل وهو أنه عجز عن مقاومة الاستبداد ، وأنه انضم إلى الشيوخ الذين حكموا على زملائهم ضحايا دومتيان . ثم عينه نيرفا قنصلا (٩٧) ، وعينه تراچان والياً على آسية . وما من شك فى أنه كان خبيراً بشئون الإدارة ، وأنه كان ذا تجارب عملية . ولقـــد كانت كتبه ثمرة حياته السابقة ، ونتاج شيخوخته الخالية من الكد وعقله الناضج العميق .

وتسرى فى هذه الكتب كلها روح واحدة — هى كراهيته للأرستقراطية ؛ فتراه فى حواره عن الخطباء (إذا كان هذا كتابه بحق) يعزو اضمحلال البلاغة إلى ما أصيبت به الحرية من قمع ، كما تراه فى كتابه « الأجركولا » Agricola — وهو أكمل تلك الرسائل ذات الموضوع الواحـــد التى قصر الأقدمون عليها السير — يروى بفخر وخيلاء ما قام به حموه ، وهو قائد وحاكم ، من جلائل الأعمال ؛ ثم يقص فى حقد وضغينة كيف فصله دومتيان من عمله وأهمله . ويبين فى مقاله القصير عن مركز الألمان وأصلهم الفرق بين فضائل الشعب الحر المنبعثة عن الرجولة وبين انحلال الرومان وجبنهم فى عهد الطغاة المستبدين . وتاستس حين يثنى على الألمان لأنهم يرون قتل الأطفال جريمة تجلل مقترفها العار ، ولا يعلون من شأن العقم ، لا يمدح الألمان فى واقع الأمر بل يندد بالرومان . وهكذا نرى الهدف الفلسفى يفسد موضوعية

البحث ولكنه يدل على اتساع أفق الموظف الرومانى الذى يمتدح قدرة الألمان على مقاومة رومة(*) .

وكان نجاح هذه المقالات مما أغرى تاستس على أن يوضح مساوئ الاستبداد ببيان جرائم الطغاة المستبدين بتفصيل خال من الرحمة . وقد بدأ عمله هذا بإيراد الجرائم التى كانت لا تزال حاضرة فى ذاكرته ، والجرائم التى يشهد بها كبار السن من أصدقائه — وهى التى وقعت فى الفترة المحصورة بين عهد جلبا وموت دومتيان . ولما أن أقرت الأرستقراطية الشاكرة هذه التواريخ ووصفتها بأنها خير ما كتب فى التاريخ من بعد ليڤى Livy واصل قصته بأن وصف فى الحوليات Annales حكم تيبريوس ، وكلجيولا ، وكلوديوس ، ونيرون . وقد بقيت لنا من الأربعين (أو الثلاثين فى قول بعضهم) « كتاباً » من كتب التواريخ أربعة كتب ونصف كتاب ، وكلها مقصورة على أحداث السنتين ٦٩ ، ٧٠ ؛ وأما الحوليات فقد بقى منها اثنا عشر كتاباً ، وكانت عدتها فى الأصل ستة عشر أو ثمانية عشر . وهذه الكتب حتى فى هذه الصورة المبتورة تعد أقوى ما كتب فى النثر الرومانى ؛ وفى وسعنا أن نرسم منها صورة غير واضحة لعظمة الكتابين كليهما وأثرهما فى النفس . وكان تاستس يأمل أن يؤرخ أيضاً حكم أغسطس ، ونيرفا ، وتراچان ، وأن يخفف من كآبة ما نشر من مؤلفاته بتخليد ذكرى سياسة هؤلاء الأباطرة الإنشائية . ولكن الأجل لم يمهله ، وحكم عليه الخلف ، كما حكم هو على الماضى ، بأن نظر إليه من الناحية القاتمة دون غيرها

ويرى تاستس أن « أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينال الطيب من هذه الأعمال ثواب الفضيلة ، وحتى يكون ما توجهه محكمة الخلف إلى أعمال السوء من ذم وتقريع حائلا بين المواطنين وبين سيئ

---

(١) وأكبر الظن أنه كتب فى عام ٩٨ قبل حملة تراچان على الداشيين .

الأعمال »(٦) .. ألا ما أعجب هذا الرأى الذى يجعل التاريخ يوم حساب ، ويجعل المؤرخ إلها يحاسب الناس على أعمالهم . وإذا ما فهم التاريخ هذا الفهم استحال إلى مواعظ — أعنى درساً فى الأخلاق وسيلتها ضرب أشد الأمثال رهبة — وأصبح كما يفترض تاستس خاضعاً لعلم البيان . إن من السهل على من يغضب أن يكون فصيحاً بليغاً ، ولـــكن ليس عليه أن يكون عادلا نزيهاً ؛ ولهذا وجب ألا يقدم العالم الأخلاقى على كتابة التاريخ . ولقد كان تاستس قريب العهد بالمستبدين يحتفظ فى ذاكرته بصورتهم ، وهذا فى حد ذاته يحول بينه وبين نظره إليهم فى هدوء . ومن أجل هذا لم ير من أعمال أغسطس إلا قضاءه على الحرية ، وظن أن كل ما كان للرومان من عبقرية قد قضى عليه يوم أكتيوم(٧) . ويبـــدو أنه لم يخطر بباله أن يخفف من حدة التهم التى يوجهها إلى الأباطرة ، بذكر براعتهم الإدارية ، ورخاء الولايات فى عهد أولئك الطغاة الجبابرة . وما من أحد يقرأ تواريخه ثم يخطر بباله أن رومة كانت إمبراطورية كما كانت مدينة . وليس ببعيـــد أن « الكتب » التى ضاعت ، كانت تلقى نظرة على الولايات وعالمها ، أما الكتب الباقية فهى تجعل تاستس مرشداً مقرراً ، لا يكذب قط ولكنه لا يسجل الحقيقة مطلقاً(*) . وكثيراً ما يقتبس من المصادر التى يرجع إليها ، سواء كانت هـــذه المصادر كتب تاريخ أو خطباً ، أو رسائل ، أو أوامر يومية ، أو قرارات مجلس الشيوخ ، أو أخبار الأسر القديمة ، وتراه أحياناً يبحثها بحث الناقد الخبير . غير أنه لم يسمع فى معظم الأحوال إلا قصص النبلاء المضطهدين ، وهو لا يتصور قط أن حوادث إعدام الشيوخ واغتيال الأباطرة لم تكن إلا أحداثاً عارضة فى صراع طويل بين الملوك الفاسدين ، القساة ، الكفاة القادرين ، وبين

(*) يذكرنا هذا بقول مكولى « إن بعض المؤرخين يحدثون كل ما للـــكذب الشنيع من أثر وإن كانوا لا يذكرون غير الحقائق » . (المترجم)

أرستقراطية منحلة ، فاسدة ، قاسية ، عاجزة . وهو يفتتن بالشخصيات والحوادث البارزة ، أكثر من افتتانه بالقوى العاملة ، والعلل ، والأفكار ، والتطورات ؛ ويرسم أنبه الشخصيات وأكثرها ظلما فى التاريخ ، ولكنه لا يدرك قط أثر العوامل الاقتصادية فى الحوادث السياسية ؛ ولا يهتم مطلقاً بحياة الناس وصناعتهم ، ولا بتيار التجارة ، أو أحوال الناس العلمية ، ولا بمنزلة المرأة ، ولا بتقلب العقائد الدينية ، ولا بروائع الأدب أو الفلسفة أو الفن . وفى كتب تاستس نرى سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس يموتون ، ولكنهم لا يكتبون ، ونرى الأباطرة يقتلون الخلق ولكنهم لا يشيدون . ولعل هذا المؤرخ الكبير كان مقيداً برغبات قرائه وسامعيه ، وأكبر الظن أنه كان يقرأ أجزاء من كتبه — كما جرت به عادة ذلك الوقت — إلى أصدقائه الأشراف الذين يقول عنهم پلنى إنهم كانوا يحتشدون لاستقباله ؛ ولعله إذا سئل عن سبب إغفاله ما أغفل قال إن أولئك الرجال والنساء كانوا يعرفون الحياة الرومانية ، وأحوال الصناعة ، والأدب ، والفن ، وإنهم لذلك لم يكونوا فى حاجة إلى من يذكرهم بها ، وإن ما كانوا يحتاجون إلى سماعه مراراً وتكراراً هو قصة هؤلاء الأباطرة الأشرار المثيرة للشعور ، وما كان يقوم به الشيوخ الصابرون من أعمال البطولة ، وكفاح تبذله طبقتهم النبيلة ضد السلطة الغاشمة . وليس من حقنا أن نأخذ تاستس بما لم يقدم عليه ، وكل ما من حقنا أن نفعله أن نأسف لضيق هدفه السامى وللقيود التى فرضها على عقله الجبار .

وهو لا يدعى قط أنه فيلسوف ، ولذلك تراه يثنى على أم أجركولا حين تحاول أن تثنى عن الاشتغال بالفلسفة ولدها « الذى أصبح أشد تحمساً للفلسفة مما هو خليق بالرومانى عضو الشيوخ[٨] » . ولقد كان خياله وفنه — كما كان خيال شيكسبير وفنه — أنشط وأكثر إبداعاً من أن يسمحا له بأن يفكر وهو هادئ فى معنى الحياة وإمكانياتها . وهو يكثر من ذكر الفضائح التى يعوزها التثبت والتحقيق كما يكثر من ذكر الشروح والتعليقات التى توضح

الحوادث وتنيرها ، ولكننا يصعب علينا أن نجد فى كتبه فكرة منسقة ثابتة عن الله ، أو الإنسان ، أو الدولة . فهو غامض غموض الحذر حين يكتب عن العقائد الدينية ، ويوحى بأن من يقبل دين بلاده أعظم حكمة ممن يحاول أن يستبدل به العلم والمعرفة . وهو لا يصدق معظم المنجمين ، والعرافين ، ولا يؤمن بالفأل ولا بالطيرة ، ولا بالمعجزات ، وإن كان يصدق بعضها . ذلك أن ظرفه وكمال أدبه يحولان بينه وبين إنكار ما يؤكده الكثيرون من الناس . ويقول إن الحوادث تنزع بوجه عام إلى إثبات « أن الآلهة لا تهتم بالأخيار أكثر من اهتمامها بالأشرار »(١٠) ، ويؤمن بوجود قوة مجهولة ، وقد تكون قوة متقلبة الأطوار والميول ، تدفع الناس والدول إلى مصائرها دفعاً لا حول لها أمامه ولا طول(١١) . وهو يأمل أن يكون أجركولا قد انتقل إلى حياة سعيدة ، ولكن يتضح من أقواله أنه يشك فى هذا ؛ وهو يقنع بآخر ما تخادع به العقول الكبيرة نفسها — خلود الشهرة الطيبة(١٢) .

وهو لا يواسى نفسه بشىء من الآمال الطوبية ؛ وفى ذلك يقول : « إن الكثرة الغالبة من خطط الإصلاح يعتنقها الناس فى بداية الأمر بحماسة وغيرة ، ولكن سرعان ما تبلى جـدتها ، وتنتهى مشروعاتها إلى لا شىء »(١٤) . وهو يعترف كارهاً بأن الأمور فى أيامه خير مما كانت قبل ، وإن كان هذا الخير قصير الأجل ، ولكنه يرى أن لا شىء ، حتى عبقرية تراجان نفسه ، ستمنع عودة التدهور والاضمحلال(١٥) ، وذلك لأن رومة قد استشرى فيها الفساد ، حتى سرى إلى قلوب الناس ، ففسدت نفوس الجماهير وبدلوا الحرية فوضى(١٦) ، وأصبحوا رعاعاً « مولعين بكل ما هو جديد ، تتوق نفوسهم إلى التغيير ، وهم على استعداد دائم لأن ينحازوا إلى جانب الأقوياء »(١٧) . وهو يرثى إلى ما ينطوى عليه العقل البشرى من خبث(١٨) ، ويهزأ كما يهزأ چوفنال بالعناصر الأجنبية من سكان رومة . وهو لا يفكر قط فى العودة إلى الجمهورية بعـد أن سوأ سمعة الإمبراطورية ، ولكنه يرجو أن يتمكن الأباطرة من التوفيق بين الزعامة

والحرية[١٩] . وهو يظن فى آخر الأمر أن الأخلاق أعظم أهمية من الحكومة ، وأن عظمة الشعب لا تقاس بما لديه من قوانين بل تقاس بما فيه من رجال .

وإذا كنا لا نجد مناصاً من أن نضع تاستس فى مصاف أعاظم المؤرخين ، رغم ما يثير دهشتنا من أننا نجد مواعظ ومسرحيات حيث كنا نبحث عن التاريخ ، فما ذلك إلا لأن قوة فنه تعوضه عن ضيق نظرته . فنظرته قوية ، وأحياناً عميقة ، وهى دائماً واضحة ، والصور التى يرسمها أكثر وضوحاً ، وهى حين تخطو على مسرح التاريخ أكثر حيوية من أية صور أخرى فى الأدب التاريخى . على أن هذه الصور نفسها لا تخلو من نقائص وعيوب . فتاستس يؤلف من عنده خطباً لشخصياته المختلفة ويؤلفها كلها بطريقته الخاصة وبنثره الفخم . فهو يصف جلباً بالبلاهة ثم ينطقه بما ينطق به الحكماء[٢٠] . وهو لا يرقى إلى ذلك الفن الصعب الذى يمكنه من أن يجعل شخصياته تنمو وتكمل على مر الأيام ؛ فتيبيريوس مثلا فى بداية حكمه هو بعينه تيبيريوس فى آخره ، وإذا كان يبدو إنساناً رحيما فى البداية ، فإن ذلك فى رأى تاستس نفاق وخداع .

وأهم ما يمتاز به تاستس هو روعة أسلوبه ، فلسنا نجد كاتباً غيره قد قال كل ما قاله بمثل إحكامه . ولسنا نقصد من هذا أن عبارته كانت موجزة فهو على عكس هذا مسهب كثير الاستطراد ، يشغل ٤٠٠ صفحة من تواريخه لتدوين حوادث عامين اثنين . وتراه أحياناً يفرط فى التركيز حتى يبلغ حد التكلف أو الغموض ، وحتى تتطلب كل كلمة ثانية جملة تترجم بها ؛ وكأن الأفعال وحروف العطف عنده ليست إلا عكازات للعقول الكليلة . وهـــذا الأسلوب هو النتيجة التى أدى إليها أسلوب سالست Sallust الموجز السريع ، ونكات سنكا القصيرة المحكمة ، والجمل القصيرة المتزنة التى كانت تعلم فى مدارس البلاغة . وهو أسلوب ، إذا كتب به كتاب طويل ، ولم تتخلله فقرات أكثر من فقراته اعتدالاً ، يثير عقل القارئ وينهكه ، ولكنه مع ذلك يعود إليـــه ويزداد به

افتتانا . وهذا الجفاف العسكرى الذى يقتصد فى الألفاظ أكثر مما يقتصد فى الرجال ، وهذا الازدراء بدعامات الجمل ، وهذه المشاعر الثائرة ، وهذا الوضوح فى التصور ، وهذا السيل الجارف من المفردات الجديدة ، وهذه العبارات اللاذعة القاتلة التى لم تبل جدتها ، هذه كلها تضفى على كتابات تاستس سرعة ، ولونا ، وقوة ، لم يضارعه فيها كاتب آخر من الكتاب الأقدمين . نعم إن اللون قاتم ، والمزاج نكد ، والسخرية لاذعة ، والنغمة كلها نغمة دانتى مجردة من رقته وحنوه ؛ غير أن الأثر الذى ينتج من هذا كله قوى عارم . وإن العنصر القصصى الذى يجمع بين المهابة والإثارة ، والجزالة والعنف ، ليحملنا على الرغم من تحفظنا وتمنعنا فى هذا النهر العكر الأسود الملىء بالتشنيع الخالى من الرأفة . فترى شخصية فى أثر شخصية تظهر على مسرح الحوادث ، ثم يقضى عليها ؛ ومظهراً فى أثر مظهر يدفع أمامنا حتى يبدو لنا أن رومة كلها قد دمرت ، وأن كل من اشتركوا فى الصراع قد هلكوا ، وحتى لا نكاد نصدق حين نخرج من هذا الجو الملىء بالرعب والهول ، أن هذا العهد الاستبدادى المفعم بالجبن والفساد الخلقى قد أعقبه مجد الملكية أيام هدريان والأنطونينيين ، وتأدب أصدقاء پلنى الهادئ .

ولقد أخطأ تاستس فى ازدرائه الفلسفة — ونعنى بها هنا مراعاة التناسب فى كتابته . وإن عيوبه كلها لترجع إلى هذا النقص . ولو أنه استطاع أن يهذب قلمه ، ويسيطر عليه ، ويسخره لخدمة عقله الواسع ، لوضع اسمه فى مقدمة أسماء أولئك الرجال الذين بذلوا جهودهم ليخلدوا تراث البشرية ، ويصوروا هذا التراث فى صورة حية خالدة .

الفصل الثانى

چوڤنال

ومما يؤسف له أن چوڤنال يؤيد تاسّس ويعزز أقواله . فالذى يكتبه ثانيهما عن الزعماء والشيوخ فى نثر حاد نافذ فى الصميم ، ينشده أولهما عن النساء والرجال فى شعر لاذع قارص ؛

كان دسيمس چونيوس چوڤنالس Decimus Junius Juvenalis ابن أحد المنتمين الأثرياء . وقد ولد فى أكوينم Aquinum من أعمال لاتيوم Latium فى عام ٥٩ . جاء إلى رومة يطلب العلم ، وأخذ يمارس صناعة المحاماة «ليتسلى بها» . وتدل أشعاره الهجائية على ما ينتاب الأذواق الريفية من دهشة وصدمة إذا ما التقت بصخب حياة المدن المنحلة . ولكن يبدو مع هذا أنه كان صديقاً لمارتيال ، الذى تدل فكاهاته على أنه لم يكن من دعاة الأخلاق الفاضلة . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن چوڤنال ألف قبل موت دومتيان بزمن قليل قصيدة هجائية فيما للراقصات من أثر فى البلاط ووزعها على أصدقائه ، ويقال إن پاريس الممثل الهزلى الصامت أغضبه هذا فسعى يعمل على نفيه إلى مصر . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة هذه القصة ، كما أننا لسنا واثقين من تاريخ عودة چوڤنال إلى رومة . ومهما يكن من أمر فإنه لم ينشر شيئاً حتى مات دومتيان . وقد ظهر المجلد الأول من قصائده الهجائية الست عشرة فى عام ١٠١ ، ثم ظهر الباقى منها فى أربعة مجلدات على فترات متقطعة فى أثناء حياته الطويلة ، وأكبر الظن أنها كانت ذكريات من عهد دومتيان الذى لم يعف الشاعر عما لحقه من أذى فيه ، ولكن الحقد وهو السبب فى وضوحها وقوتها وارتيابنا فى صدقها ليوحى بأن سنى « الأباطرة الصالحين » القليلة لم تمح المساوئ التى يندد بها . أو لعله

قد اختار الهجاء لأنه من الأساليب التى تميز الرومان من غيرهم من الشعوب . وأنه وجد أمثلة يحتذيها ، ومادة يقتبسها فى كتابات لوسليوس ، وهوراس ، وپرسيوس ؛ وصاغ سخطه وغضبه على أساس المبادئ البيانية التى تعلمها فى المدرسة . والحق أنا لا نعرف مقدار التقدم الذى خلعه على الصورة التى فى ذهننا عن رومة الإمبراطورية ، وما كان يجده الكتاب والشعراء من لذة فى التشهير والسباب .

ويتخذ چوڤنال كل شىء موضوعا لشعره . وهو لا يجد قط مشقة فى أن يجد فى كل شىء ناحية تتحمل الذم ، ويظن « أننا قـد وصلنا إلى الدرجة القصوى فى الرذيلة ، وأن من يأتون بعدنا لن يستطيعوا أن يتفوقوا فيها علينا » وهو صادق فى هذا . ولقد كان أصل البلاء كله طلب الثروة بجميع الوسائل الطيب منها والخبيث . وهو يسخر من العامة الذين كانوا فى الأيام الخالية يحكمون الجيوش ويخلعون الملوك ، ولكنهم أضحوا الآن يُشترون بالخبز والألعاب(٢٣) . وتلك عبارات من مئات العبارات التى خلدها چوڤنال بقوته وحيويته . وهو يستنكر ذلك السيل المتدفق من الوجوه ، والثياب ، والأساليب ، والروائح ، والآلهة الشرقية ؛ ويحتج على نزعة اليهود القَبَلية ، وأقل من يحبه من الخلق هو « اليونانى القمئ الشره » وهو السلالة المنحطة لشعب كان من قبل عظيما ولكنه لم يكن قط شريفاً . وهو يظهر اشمئزازه من المخبرين ، أشباه رجيلس Regulus الذى يصفه پلنى ، والذين يثرون بنقل ما ينطق به الأفراد من عبارات « غير وطنية » ؛ ومن الذين يجرون وراء الوصايا فيحومون حول من لا أبناء لهم من الطاعنين فى السن ؛ ومن حكام الولايات الذين يعيشون طول حياتهم عيشة الترف بما يبتزونه من الأموال فى أثناء حكمهم ومن المحامين النابهين الذين يطيلون القضايا كما يطيل العنكبوت نسيجه الذى يتبرزه من بطنه ؛ وأشد ما يعافه هو الإفراط فى الصلات الجنسية والشذوذ الجنسى : الخليع المتهتك الذى إذا تزوج وجد أن عهره قد جعـله ضعيفاً عاجزاً ؛ ومن الشبان المنافقين الذين لا نستطيع أن نميزهم من النساء لتشبههم بهن

فى أخلاقهم ، وتعطرهم وشهواتهم ؛ ومن النساء اللائى يعتقدن أن معنى التحرر أن يتشبهن فى كل شىء بالرجال حتى لا تستطيع تميزهن منهم .

وقد خص الجنس اللطيف بقصيدته الهجائية السادسة وهى أشد قصائده صرامة . نرى فيها پستيومس Postumus يفكر فى الزواج ، فيحذره چوڤنال من التورط فى هذا العمل ؛ ثم يصور الشاعر نساء رومة ويصفهن بأنهن أنانيات ، سليطات ، مخرفات ، مسرفات ، كثيرات الشجار ، متعجرفات ، مغرورات ، محبات للنزاع ، زانيات لا يكدن يتزوجن حتى يطلقن ، ويستبدلن الكلاب المدللة بالأطفال »[٢٤] . ويخلص من هذا الوصف إلى أنه لا تكاد توجد فى رومة كلها امرأة خليقة بأن تكون زوجة . ويقول إن الزوجة الصالحة عصفور نادر ، أندر من الغراب الأبيض . ويدهشه أن پستيومس يفكر فى الزواج على حين أن هناك « حبالا كثيرة للشنق ، ونوافذ كثيرة عالية شاهقة يستطاع الوصول إليها ؛ وعلى حين أن جسر إيميليوس لا يبعد عنه إلا قليلا » . حذار أن تتزوج ، بل ابق عزبا ، واخرج من مستشفى المجانين الذى يحطم الأعصاب ، والذى يسمونه رومة ، وعش فى بلدة إيطالية هادئة ، تلتقى فيها برجال أشراف ، وتأمن فيها على نفسك من المجرمين والشعراء ، والمبانى المنهارة ، واليونان[٢٧] . واطرح المطامع وراء ظهرك ، فإن الهدف لا يستأهل ما يبذل فى الوصول إليه من جهود . ألا ما أطول الجهد ، وما أقصر ما يعقبه من صيت . عش عيشة بسيطة ، وازرع حديقتك ، ولا تطلب أكثر مما يسد رمقك ، ويطفئ ظمأك ويرد عنك البرد والحر[٢٨] . وعود نفسك الرأفة ، وأشفق على الأطفال ، وكن ذا عقل سليم فى جسم صحيح[٢٩] . والأبله وحده هو الذى يرجو طول الأجل .

وليس من العسير علينا أن نفهم هذا المزاج . ذلك أن مما يسر له الإنسان أن يفكر فى نقائص جيرانه وفى ضعة العالم وحقارته إذا قورن بأحلامنا . وإن مما يضاعف سرورنا ونحن نفكر هذا التفكير أن نرى هـــذه الآراء

Contoh

مصوغة فى ألفاظ چوڤنال التى جمعها من ألسنة الغوغاء فى أزقة المدن وأشعاره السلسة السداسية الأوتاد ، وفكاهته الساخرة ، وأسلوبه البذىء . ولكن ليس من حقنا أن نأخذه بحرفية أقواله . لقد كان يكتب وهو غاضب ، لأنه لم يشق طريقه فى رومة بالسرعة التى كان يرجوها . وكان يحلو له أن يثأر لنفسه بأن يكيل الضربات قوية لكل من حوله مدفوعاً إلى ذلك بحقده الذى لم يدع فى يوم من الأيام أنه حقد عادل . لقد كان معياره الخلقى عالياً وسليما وإن كان قد لوثته أهواء المتحفظين وآراؤهم الخاطئة عن الماضى الطاهر الشريف . وفى وسعنا إذا استمسكنا بهذه المعايير ، واتبعناها فى غير رحمة واعتدال ، أن ندين أى جيل من الناس فى أى مكان . وقد أدرك سنكا قدم هذا اللهو فكتب يقول : « لقد كان أسلافنا يشكون ، ولا نزال نحن نشكو ، وسيظل أبناؤنا وأحفادنا يشكون ، من فساد الأخلاق ، ومن تمكن الشر من النفوس ، ومن تردى الناس فى مهاوى الخطايا كل يوم أكثر من الذى قبله ، ومن أن أحوال الناس تنتقل من سيئ إلى أسوأ منه[٣٠] . إن من وراء الفساد الخلقى الظاهر فى كل مجتمع دائرة من الحياة السليمة يتسع نطاقها اتساعاً مستمراً ويكفى ما فيها من خيوط التقاليد ، وأوامر الدين التى تحض على الخلق الصالح ، وما تفرضه الأسرة من واجبات اقتصادية ، وما تدفع إليه الغريزة من حب الأبناء والعناية بأمرهم ، وما للمرأة ورجال الشرطة من رقابة ، يكفى ما فيها من هذا كله لأن يجعلنا أمام الناس مؤدبين محتشمين عاقلين معتدلين . لقد كان چوڤنال أعظم الهجائين الرومان ، كما كان تاستس أعظم المؤرخين الرومان ، ولكننا نخطئ إذا أخذنا الصورة التى يرسمانها على أنها صورة صحيحة ، كما نخطئ إذا قبلنا من غير بحث وتمحيص المنظر الراقى الجذاب الجميل الذى يتراءى أمامنا ونحن نقرأ رسائل پلنى .

الفصل الثالث

سيد رومانى كامل

لما ولد فى كومو Como سمى پلينيوس كاسليوس سكندس Plinius Caecilius Secundus . وكان لأبيه ضيعة وقصر صغير ذو حديقة قرب البحيرة ، وكان يشغل منصباً كبيراً فى المدينة . وتيتم وهو صغير فتبناه وعلمه أولا ڤرچينيوس روفس Virginius Rufus والى ألمانيا العليا ، ثم عمه كيوس پلينيوس سكنـــدس Caius Plinius Secundus مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى . وتبنى هذا العالم المجد ابن أخيه وأورثه ملكه ثم مات بعد ذلك بقليل . وتسمى الولد باسم متبنيه كما جرت به العادة فى تلك الأيام ، وأدى ذلك إلى ارتباك فى الأسماء ظل قائماً ألفى عام . وتلقى العلم فى رومة على كونتليان ، فنشأه على تذوق شيشرون ، وإليه يرجع بعض الفضل فى أسلوب پلنى الشيشرونى السلس . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قيد فى جدول المحامين ، وفى التاسعة والثلاثين اختير لإلقاء خطاب ترحيب بتراچان . وفى السنة نفسها عين قنصلا ؛ وفى عام ١٠٣ عين عرافاً ؛ وفى عام ١٠٥ عين « حارساً على مجرى التيبر وضفتيه وعلى مجارى المدينة » . ولم يكن يأخذ أجراً أو هدايا على أعماله القضائية ، ولكنه كان واسع الثراء ، فى وسعه أن يكون كريماً عظيما . وكانت له أملاك فى إتروريا ، وبنفنتم ، وكومو ، ولورنتم ، وعرض ثلاثة ملايين سسترس ثمناً لملك آخر(٣١) .

وكان يفعل ما يفعله كثيرون من أشراف ذلك الوقت فيتسلى بالكتابة : كتب أولا مأساة يونانية ، ثم عدة قصائد ، كلها خفيفة الروح ، وبذيئة فى بعض الأحيان . ولما لامه بعضهم على هذا اعترف بخطئه ولكنه لم يرجع عنه ، وعرض مرة أخرى أن « يندفع فى تيار المرح ، والفكاهة ، واللهو ،

ويندمج فى روح أشد أنواع الأدب خلاعة وفجوراً » (٣٢) . ولما سمع الناس يثنون على رسائله ، ألف بعضها لينشر ، ونشرها فى فترات متقطعة بين عامى ٩٧ ، ١٠٩ . وإذ لم يكن ينشر هذه الرسائل للجمهور فحسب ، بل كان يقصد أيضاً أن تستمتع بها الأوساط التى يصفها فيها ، فقد تجنب وصف النواحى القاتمة من الحياة الرومانية ، وأغفل المسائل الفلسفية والسياسية الواسعة لأن فيها من الجد أكثر مما يتفق مع غرضه . وتنحصر قيمة هذه الرسائل فى صدقها وظرفها ، وفيما تضفيه على الخلق الرومانى وعلى أساليب الأشراف من أضواء وردية براقة .

ويكشف پلنى عن نفسه بنصف الصراحة التى يكشف بها عن نفسه منتانى وبكل ما فى كتابات منتانى من سلاسة التعبير . وهو يتصف بالغرور الذى يستطيع أى مؤلف أن يتحاشاه ، ولكن صراحته فى غروره هذا تجعله غروراً لا يكاد يسىء . انظر مثلا إلى قوله : « إنى لأعترف ألا شىء أقوى أثراً فىّ من الرغبة فى أن يخلد اسمى » (٣٣) . وهو يقدر غيره كما يقدر نفسه ، ويقول إن « فى وسع الإنسان أن يثق بأن شخصاً ما يتصف بكثير من الفضائل إذا سمعه يعجب بفضائل غيره » (٣٤) . ومهما تكن عيوب پلنى فإن مما يستريح له الإنسان بعد دراسة چوڤنال وتاستس ، أن يستمع إلى مؤلف يثنى على بنى جنسه . ولقد كان كريماً فى أعماله كما كان كريماً فى أقواله ، لا يتردد قط فى أن يفعل المعروف ، ويقرض المال ، أو يقدم الهدايا ، ولا يضن بعمل الخيرات على اختلاف أنواعها ، سواء كانت شخصية كالبحث عن زوج لابنة أخ صديق ، أو زيادة ثروة المدينة التى ولد فيها . ولما وجد أن كونتليان عاجز عن أن يقدم لابنته بائنة تليق بمقام الرجل الذى ستتزوج به ، بعث إليها بخمسين ألف سسترس ، واعتذر فى الوقت نفسه عن حقارة الهدية (٣٥) . ووهب رفيقاً قديماً له فى الدراسة ثلثمائة ألف سسترس ، ليمكنه من أن ينضم إلى طبقة الفرسان ؛ ولما وجد أن ابنة صديق له حُمِّلت بعد موت أبيها بديون باهظة أداها كلها عنها ، وأقرض مبلغاً كبيراً إلى

فيلسوف نفاه دومتيان وتعرض بذلك لبعض الخطر . ووهب كومو هيكلا ، ومدرسة ثانوية ؛ ومعهداً للأطفال الفقراء ، وحماماً للبلدية ، وأحد عشر ألف سسترس لإنشاء مكتبة عامة .

وأكثر ما يسر له الإنسان من صفاته هو حبه لموطنه ، أو إن شئت فقل لمواطنه ، وهو لا يذم رومة ، ولكنه يكون أسعد حالا فى كومو أو لورنتم بالقرب من البحيرة أو البحر . وأهم ما كان يعمله هناك هو القراءة وعدم القيام بعمل ما . وهو يحب حدائقه ، وما وراءها من المناظر الجبلية ؛ ولم يكن عليه أن ينتظر روسو ليعلمه حب الطبيعة . وهو يتحدث بمنتهى الحنان عن زوجته الثالثة كلبيرنيا Calpurnia فيصف طبعها الحلو ، وعقلها الصافى ، وابتهاجها بنجاحه ، وحبها لكتبه ، ويعتقد أنها قد قرأتها كلها وأنها تحفظ الكثير من صحائفها عن ظهر قلب . وقد لحنت قصائده وغنتها ، وكان لها فرقة خاصة من الرسل يأتونها بجميع ما يحدث من التطورات أثناء نظره فى قضية هامة . ولم تكن هى إلا واحدة من نساء كثيرات طيبات فى محيطه . فهو يحدثنا عما تتصف به فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها من تواضع ، وصبر ، وشجاعة . وكانت هذه الفتاة قد خطبت من وقت قصير ولكنها ما لبثت أن عرفت أنها مصابة بداء عضال لا تشفى منه ، فأخذت تنتظر منيتها وهى مبتهجة (٣٦) . ويحدثنا كذلك عن زوجة بمپيوس سترنينس Pompeius Saturninus التى كانت رسائلها لزوجها أناشيد حب ونماذج باللغة اللاتينية الظريفة (٣٧) ؛ وعن فانيا Fannia ابنة ثرازيا Thrasaea التى قاست آلام النفى دون أن تشكو أو تتململ لأنها دافعت عن زوجها هلفديوس ، والتى مرضت قريباً لها فى أثناء إصابته بمرض خطر ، فأصيبت بذلك المرض وقضى على حياتها ؛ ثم يقول فيها : « ألا ما أكمل فضائلها ، وطهرها ، واستقامتها ، وشجاعتها ! »(٣٨) .

وكان له مائة صديق ، بعضهم من العظماء ، وكلهم من خيار الناس ، وقد

انضم إلى تاستس فى محاكمة ماريوس پرسكس لخيانته وقسوته فى أثناء ولايته على أفريقية . وصحح كلا الخطيبين خطبة صاحبه ، وأثنى عليه أجمل الثناء . وأشاد تاستس بپلنى ورفعه إلى عنان السماء ، حين قال إن عالم الأدب اعترف بهما زعيمى الكتاب فى عصرهما(٣٩) . وكان يعرف مارتيال ، ولكنه يعرفه من بعيد معرفة الأرستقراط . واستصحب معه سوتنيوس إلى بيثينيا ، وساعده على التمتع بميزة من « له ثلاثة أبناء » دون أن يكون له ابن واحد . وكان محيطه يطن بهواة الأدب والموسيقى ، وبمن ينشدون الشعر ويلقون الخطب على الجماهير . وفى ذلك يقول العالم بواسييه Boissier : « لست أعرف أن الأدب كان يحبه الناس فى عصر من العصور بالقدر الذى كان يحبه به أهل ذلك العصر »(٤٠) . فقد كانوا يدرسون هومر وڤرجيل على ضفاف الدانوب ؛ وكانت البلاغة تزلزل نهرى الرين والتيمز . لقد كان النصف الأعلى من ذلك المجتمع ظريفاً ، أنيساً ، محبوباً ، غنياً بما فيه من أزواج متحابين ، وآباء عاطفين ، وسادة رحماء ، وأصدقاء أوفياء ، ومجاملات لطيفة . وقد جاء فى إحدى الرسائل : « إنى أقبل دعوتك للعشاء ، ولكنى أشترط عليك مقدماً أن تأذن لى بالخروج بعد قليل ، وأن تكون مقتصداً فيما تقدمه إلى ، وألا تجعل مائدتنا تزدحم إلا بالأحاديث الفلسفية ، وحتى هذه دعنا نستمتع بها فى نطاق محدد »(٤٢) .

وكان أكثر الرجال الذين يصفهم پلنى من الأشراف الجدد الذين نشأوا فى الولايات . ولم يكن هؤلاء ممن لا يقومون بعمل ، لأنك لا تكاد تجد واحداً منهم لا يشغل منصباً عاماً أو لا يشترك فى الإدارة البارعة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية فى عهد تراچان . وقد عُين پلنى نفسه والياً على بثينيا بعد أن كان پريتوراً فى رومة ليعيد إلى بعض مدنها مقدرتها على أداء ديونها . وتشمل رسائله بعض الأسئلة الموجهة إلى الزعيم ، ومعها إجابات

تراجان السديدة . وهى تظهر پلنى بمظهر الرجل الذى ينجز مهمته بمقدرة وأمانة ، وشرف ، وإن كانت تظهره أيضاً بمظهر الرجل الذى يعتمد على نصيحة الإمبراطور فى كل صغيرة وكبيرة . وهو يرجو الإمبراطور فى رسالته الأخيرة أن يغفر له إرساله زوجته المريضة فى عربات البريد الإمبراطورى . ويختفى پلنى بعد هذه الرسالة من ميدان الأدب والتاريخ ، تاركاً وراءه ما يعوضنا عن فقده — صورة الرومانى السميذع ، وصورة لإيطاليا فى أسعد أيامها .

الفصل الرابع

اضمحلال الثقافة

لو أننا أحطنا هذه الشخصيات البارزة بأضواء أقل من أضوائها لطمسناها وأخفيناها عن أعين الناظرين . ذلك بأنه لم يخلفها فى الآداب اللاتينية الوثنية جبابرة أمثالها ، لأن العقل قد بذل كل ما كان يدخره من جهد من عهد إنيوس إلى عهد تاستس حتى لم يبق لديه جهد مدخر ؛ ولهذا فإنا نصدم أكبر صـــدمة حين ننتقل من عظمة كتابى **التواريخ والحوليات** إلى كتاب سوتنيوس المزرى المسمى **حياة الرجال النابهين** (١١٠) : ففى هذا الكتاب ينحط التاريخ حتى يصبح مجرد سير ، وتنحط السير حتى تصير قصصاً . وتمتلئ صفحات الكتاب بالنذر ، والمعجزات ، والخرافات . ولم يرفع الكتاب إلى منزلة الكتب الأدبية إلا الأسلوب الإليصاباتى الذى ترجمه به فليمون هلند **Philemon Holland** (١٦٠٦) ؛ وأقل من هذا إثارة للاشمئزاز الانحدار من رسائل پلنى إلى رسائل فرنتو . ولعل هذه الرسائل الأخيرة لم يكن يقصد نشرها ، وليس من العدل لهذا السبب أن نفاضل بينها وبين رسائل پلنى . لكننا يجدر بنا أن نقول إن بعضها قد أفسده جرى الكاتب وراء العبارات العتيقة ، وإن كان فى الكثير منها شىء من العطف الحقيقى الذى يشعر به المعلم نحو تلميذه . وقد أيد أولس جليوس **Aulus Gellius** حركة الرجوع إلى العبارات العتيقة فى كتابه **الليالى الأتكية** (١٦٩) — وهو أكبر مجموعة من السخافات الحقيرة التافهة فى الأدب القديم ؛ ووصل أپوليوس **Apuleius** بهذه الحركة إلى غايتها فى كتابه المسمى **الحمار الذهبى** . وقد جاء أپوليوس وفرنتو من أفريقية وربما كان من أسباب نشأة

هذه الهواية أن الأدب اللاتينى فى تلك البلاد لم يكن قد اختلف عن لغة الشعب والجمهورية بقدر اختلافه عن هذه اللغة فى رومة . وكان فرنتو قوى الاعتقاد بأن من الواجب أن يقوى الأدب بلغة الشعب ، كما يجدد الإنسان قوة النبات بتقليب الأرض عند جذوره . لكن الشباب لا يعود قط إلى حياة الرجل ، أو الأمة ، أو الأدب أو اللغة(*) . لقد كانت النزعة الشرقية قد بدأت تدب فى هذه الكتب ، ولم يكن من المستطاع وقف سيرها . وكانت اللغة اليونانية العامية المنتشرة فى الشرق الهلنستى وروما المستشرقة تصبح شيئاً فشيئاً لغة الأدب ، ولغة الحياة جميعاً . وقد اختارها تلميذ فرنتو ليكتب بها *تأملاته* ، وكما اختار أپيان Appian ، وهو يونانى إسكندرى اتخذ رومة موطناً له ، اللغة اليونانية ليكتب بها كتابه الواضح الساطع فى *تواريخ* حروب رومة (حوالى ١٦٠) ؛ وكذلك فعل كلوديوس إيليان Claudius Aelian . وهو رجل رومانى المولد والدم ، وكتب ديوكاسيوس ، وهو رجل رومانى من أعضاء مجلس الشيوخ ، بعد نصف قرن من ذلك الوقت ، تاريخاً لرومة باللغة اليونانية . ذلك أن زعامة الأدب قد أخذت وقتئذ تعود من رومة إلى الشرق اليونانى ، على أن هذه العودة لم تكن عودة إلى الروح اليونانية الأصيلة ، بل إلى الروح الشرقية ، وإن كانت تستخدم اللغة اليونانية . لقد وجد فى الأدب اليونانى بعد هذا الوقت جبابرة ، ولكنهم كانوا قديسين مسيحيين .

وكان اضمحلال الفن الرومانى أبطأ من اضمحلال الآداب اليونانية . ذلك أن الكفاية الفنية قد طال عهدها وأخرجت طائفة قديرة من المبانى ، والتماثيل ، والصور ، والفسيفساء . ومن أمثلة تحف ذلك العصر رأس نيرفا المحفوظ فى

(*) لا شك أن قياس حياة الأمة ، والأدب ، واللغة بحياة الفرد قياس مع الفارق ، وأن القول بأن شبابها إذا ولى لا يعود قط لا يستند إلى أساس علمى صحيح ؛ فكثيراً ما رأينا شباب الأمم والآداب واللغات يتجدد ويعود أقوى مما كان . (المترجم)

الفاتيكان ، والذى يتمثل فيه الطابع الواقعى الواضح الذى نشاهده فى الصور الفلاڤية ؛ وعمود تراچان مثـــل من النقوش الرائعة رغم كثرة ما فيه من فجاجة . ولقد بذل هدريان جهوداً مضنية لإحياء الفن اليونانى القديم ، ولكنه لم يجد من يغدق عليه ماله وعونه كما أغدق پركليز المال والعون على فدياس . يضاف إلى هذا أن الإلهام الذى كان يحرك بلاد اليونان بعد مرثون ، ويحرك رومة بعد أكتيوم ، كان معدوماً فى عصر يكبل فيه الناس أنفسهم بالقيود ، ويصطنعون القناعة ويجنحون للسلم . من أجل هذا نرى تماثيل هدريان النصفية تعوزها الصفات المميزة لشخصيته لما فيها من خطوط هلنستية ملساء ؛ ورأسا پلوتينا وسابينا جميلان ، ولكن النفس تشمئز من صور أنتينووس لما فيها من تفاهة مخنثة ناعمة . وأكبر الظن أن هدريان قد أخطأ إذ حاول العودة إلى الفن اليونانى القديم : فقـــد قضى بهذه المحاولة على ما كان يمتاز به فن النحت الفلاڤى والتراچانى من نزعة طبيعية وفردية دافعة قوية ، كانت لها جذور متأصلة فى التقاليد والأخلاق الإيطالية ، وما من شك فى أن شيئاً ما لا يستطيع أن يتضح إلا عن طريق تحقيق طبيعته الخاصة به .

وقفز فن النحت اليونانى إلى قرب ذروته فى عهد الأنطونينيين ، بل إنه وصل فى هذا العهد إلى درجة الكمال مرة واحدة على الأقل ، وذلك فى صورة فتاة مثل فيها رأسها المقنع وثيابها المتواضعة تمثيلا رقيقا ساحراً ، وبخطوط غاية فى القوة[٤٣] . وتكاد تضارعها فى الجمال صورة فوستينا لماركس ، وهى التى تثير من الشهوة ما يتفق مع لمزات التاريخ . وقد نحتت لأورليوس نفسه أو صبت له تماثيل لا تقل أشكالها عن ألف شكل تختلف من تمثال الكپتول النصفى الذى يمثله شابا مفكراً سليما من المكر والخداع ولكنه

شديد الحاسية ، إلى تمثاله فى هذه المجموعة نفسها والذى يمثله فى صورة استاذ ذى شعر ملتو ودروع سابغة . وليس ثمة سائح يجهـــل تمثال الامبراطور أورليوس الفارس ذلك التمثال البرنزى الفخم الذى يشرف ، من يوم أن أعاده ميكل أنچلو ، على ساحة الكپتول .

وبقى النقش البارز إلى آخر العهود فنا رومانيا محبوبا . وعادت فى أيام هدريان العادة التسكانية والهلنستية ، عادة حفر المناظر الأسطورية والتاريخية على التوابيت حين اتخـــذ الأمل فى الخلود صورة شخصية بل صورة جسمية ، وحل دفن جثث الموتى محل إحراقها . وتظهر إحدى عشرة لوحة باقية من أقواس النصر التى أقيمت لتخليد ذكرى حروب أورليوس(*) الطراز الطبيعى فى أكمل أشكاله : فليس فى هذه اللوحات صورة واحدة لشخص قد رسم على أنه مثل أعلى للأشخاص ، بل إن لكل فرد فيها خصائصه الفردية التى يمتاز بها من غيره ، فصورة ماركس وهو يستقبل فى غير فخر أو كبرياء خضوع أعدائه المغلوبين صورة يستثير صاحبها الحب ، والمغلوبون لا يظهرون كأنهم برابرة همج بل يبدون فى صورة رجال خليقين بكفاحهم الطويل فى سبيل حريتهم . وقد أقام مجلس الشيوخ والشعب فى عام ١٧٤ عمود أورليوس الذى لا يزال يزين الساحة التى أقيم فيها ، وقد استلهم من أقاموه فكرته من عمود تراچان ، فصوروا فيـــه الحروب المركمانية وأظهروا فى فنهم هذا من العطف ما يشرف الغالبين والمغلوبين على السواء .

وكانت روح الإمبراطور هى التى ساعدت على تشكيل فن هذا الوقت وأخلاقه . ذلك أن الألعاب فى أيامه كانت أقل قسوة ، وأن القوانين كانت أكثر رعاية للضعفاء ، وكان الزواج فيما يبدو أدوم وأرضى للزوجين . نعم إن الفساد الخلقى قد بقى كما كان فى كل العهود ، تجهر به القلة ، وتخفيه الكثرة ولكنه كان قد جاوز غايته فى عهد نيرون ، ولم يعـــد هو طراز الوقت

(*) وتزين ثمان منها قوس قسطنطين ، وتوجد ثلاث فى متحف الكنسر قتورى .

المحبب ، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى الدين القديم ، أو يهبون أنفسهم لأديان جديدة ، ووافقهم الفلاسفه على هذا وذاك . وغصت رومة وقتئذ بأولئك الفلاسفة ، فمنهم من دعاهم أورليوس ، ومنهم من رحب بمجيئهم ، ومنهم من سمح لهم بالإقامة . وقد أفادوا كل الإفادة من كرمه وسلطانه ، فازدحم بهم بلاطه ، ونالوا منه المناصب والهبات ، وألقوا ما لا يحصى من المحاضرات ، وافتتحوا كثيراً من المدارس ، ووهبوا العالم فى شخص تلميذهم الإمبراطور مجد الفلسفة القديمة وانحلالها .

pelikan.com

الفصل الخامس

الإمبراطور الفيلسوف

جلس ماركس أورليوس فى خيمته قبل موته بست سنين ليصوغ أفكاره عن الحياة البشرية ومصيرها . ولسنا واثقين من أن كتابه المسمى « إلى نفسه » كان يقصد به أن تطلع عليه أعين الجماهير ، ولكنا نرجح أن هذا كان قصده لأن الناس جميعاً ، حتى القديسين ، لا يسلمون من الغرور ، ولأن أعظم رجل عامل مجد تمر به لحظات من الضعف يتمنى فيها أن يكتب كتاباً . ولم يكن ماركس مؤلفاً قديراً ، وقد أضاع معظم ما علمه إياه فرنتو من اللغة اللاتينية لأنه أخذ يكتب باللغة اليونانية . هذا إلى أن تلك « الأفكار الذهبية » قد كتبت فى الفترات التى تتخلل أسفاره ، وحروبه ، وما كان يقع فى البلاد من فتن واضطرابات كثيرة . وليس لنا أن نلومه لأنه جعلها متقطعة غير منسجمة ، ولأنه يعمد فيها إلى التكرار الكثير ، ولأنها فى بعض الأحيان مسئمة مملة ، ولأن قيمة الكتاب لا تعتمد إلا على محتوياته — على رقته وصراحته ، وعلى ما يكشفه دون وعى كامل منه عن نفسية تجمع بين الوثنية والمسيحية ، وبين العصر القديم والعصر الوسيط .

وكان أورليوس يرى كما ترى كثرة فلاسفة زمانه ان الفلسفة ليست وصفاً نظرياً للانهاية ، بل هى مدرسة لتعليم الفضيلة وطريقة للحياة . وقلما كان يشغل باله بالبحث فى حقيقة الله ، وتراه يتحدث أحياناً كما يتحدث اللا أدريون ، فيعترف أنه لا يعرف ، ولكنه بعد أن يقر على نفسه هذا الإقرار يقبل دين آبائه وأجداده بتقوى الرجل الساذج ، ويسأل نفسه قائلا : «وماذا يعود على من حياتى فى عالم خال من الآلهة ومن قوة تصرف شئونه ؟ »(٤٤) وكان إذا

تحدث عن الله تحدث عنه تارة بصيغة المفرد وتارة بصيغة الجمع ، وفى حديثه كل ما فى سفر التكوين من عدم مبالاة . وهو يصلى ويقرب القرابين للآلهة القدامى ، ولكنه فى خبيئة نفسه يؤمن بألوهية الكون ، ويتأثر أشد التأثر بنظام العالم وكلمة الله فيه ، وهو يحس كما يحس الهنود باعتماد العالم والإنسان كل منهما على الآخر . ويثير عجبه نمو الطفل من بذرة صغيرة ، لا تلبث أن تتشكل فتكون لها أعضاء ، وقوة ، وعقل ، وأمانى ، وكل ذلك بقليل من الطعام(٤٥) . ويعتقد أننا لو استطعنا أن نفهم الكون على حقيقته لوجدنا فيه كل ما الإنسان من نظام وقوة خالقة مبدعة ويقول : « إن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض ، والرابطة التى بينها رابطة مقدسة . . . وفى الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة إله واحد يسرى فى كل شىء ، ومادة واحدة ، وقانون واحد ، وحقيقة واحدة . . . وهل يمكن أن يكون فيك أنت نظام واضح ، وفى الكون كله اضطراب واختلال؟ »(٤٦).

وهو يعترف بما يجده الإنسان من صعوبة فى التوفيق بين الشر والألم والشقاء الذى يبدو أن الإنسان لا يستحقه ، وبين وجود قوة مدبرة خيرة ، ولكنه يعقب على هذا بقوله إننا لا نستطيع أن نحكم على موضع عنصر أو حادثة فى نظام الأشياء إلا إذا رأينا هذه الأشياء كلها ، ومنذا الذى يدعى أنه أوتى القدرة على أن ينظر إلى الأشياء هذه النظرة الجامعة ويدرك علاقتها بعضها ببعض ؟ ولهذا كان من السخف والوقاحة أن نحكم على العالم ؛ وإنما تكون الحكمة فى الاعتراف بعجزنا وفى العمل على أن نكون أجزاء متناسقة مع النظام العام للكون ، وأن نحاول أن نستشف ما وراء جسم العالم من عقل ، وأن نتعاون معه راضين مختارين . ومتى أدرك الإنسان هذه الفكرة أدرك أن « العدل فى كل ما يحدث » أى أنه يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة(٤٧) ، ولا يمكن أن يكون شىء يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة شراً (٤٨) . وكل شىء طبيعى جميل فى نظر من يفهم(٤٩) ؛ وكل شىء يقرره العقل العالمى العام أى المنطق الكامن فى جميع الأشياء ، وعلى كل جزء أن يرحب ،

فى رضاء وابتهاج ، بنصيبه المتواضع وبمصيره . « والاتزان » (وهو الذى أوصى به أنطونينس ساعة وفاته) هو أن يقبل الإنسان طائعاً مختاراً كل ما تحدده طبيعة المجموع كله »(٥٠) .

« كل ما يوائمنى يوائمك أيها الكون ، وليس شىء يحدث فى الوقت الذى يناسبك يحدث لى مبكراً عن موعده أو متأخراً عنه . وكل شىء تأتى به فصولك أيتها الطبيعة ثمرة ناضجة لى ، كل الأشياء تصدر منك ، وكل الأشياء مستقرة فيك ، وكل الأشياء عائدة إليك(٥١) .

وكل ما للمعرفة من قيمة أنها أداة للحياة الصالحة . « وما الذى يرشد الإنسان ويهديه إذن ؟ لا شىء إلا الفلسفة »(٥٢) — على ألا تكون منطقاً أو علما ، بل تدريباً على السمو الخلقى دائما متصلا « كن مستقيما وإلا فلتقوم » (٥٣) . ولقد وهب الله الإنسان ديمونا أو روحا داخلية — هى عقله . والفضيلة هى حياة العقل .

« تلك هى مبادئ النفس العاقلة ، وهى تسرى فى الكون كله ، وتشرف على شكله ، وتمتد إلى الأبدية ، وتحتضن التجدد الدورى لجميع الأشياء ، وتدرك أن من سيخلفوننا لن يروا شيئاً جديداً ، وأن من سبقونا لم يروا أكثر مما رأينا ، بل إن من فى الأربعين من عمره ، إذا كان لديه شىء من الإدراك ، قد رأى بطريقة ما ، وبفضل هذه الوحدة المتناسقة ، كل ما كان وما سيكون »(٥٤) .

ويرى ماركس أن مقدماته تضطره إلى أن يكون من المتزمتين فهو يقول : « ليست اللذة طيبة أو نافعة »(٥٥) . وهو ينبذ الجسم وكل أعماله ويتحدث أحيانا كما يتحدث ماركس أنطونيوس .

« ألا فانظروا إلى حقارة الأشياء وسرعة فنائها ؛ إن ما كان بالأمس قطعة صغيرة ، سيصبح غداً جثة أو رماداً ... ألا ما أقصر حياة الإنسان كلها ، وما أكثر ما يعانيه فيها من متاعب ... : وما أكثر شقاء الجسم الذى يجتازها به ! ... قلبها ظهراً لبطن تر أية حياة هى(٥٦) . والعقل فى رأيه يجب أن يكون

حصناً محرراً من الشهوات الجسمية ، والانفعالات ، والغضب ، والحقد ؛ ويجب أن يكون منهمكاً فى عمله انهماكاً لا يكاد يلاحظ معه تقلبات الحظوظ أو سهام العداوات . « إن قيمة كل إنسان تعدل بالضبط قيمة ما يشغل به نفسه من الأشياء »(٥٧) . وهو يسلم كارهاً بأن هذا العالم أشراراً ، ويقول إن الطريقة التى يجب أن يتبعها الإنسان معهم هى أن يذكر أنهم هم أيضاً رجال ، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التى ارتكبوها مدفوعين بجبرية الحوادث والظروف(٥٨) . « وإذا أساء إليك إنسان ، فالضرر واقع عليه ، ومن واجبك أن تعفو عنه »(٥٩) . وإذا أحزنك وجود الأشرار من الناس ، ففكر فى العدد الكثير من الأخيار الذين التقيت بهم ، وفيما يمتزج فى الأخلاق غير الكاملة من فضائل كثيرة(٦٠) . والناس كلهم إخوة ، أخياراً كانوا أو أشراراً ، وكلهم أبناء الله ينتسبون إليه ، والهمجى البشع نفسه مواطن فى الوطن العام الذى ننتمى كلنا له . « فأنا بوصفى أورليوس تكون رومة وطنى ، وبوصفى رجلا يكون وطنى هو العالم كله »(٦١) . ترى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية ؟ كلا ، إن الأمر على عكس هذا تماماً ولا شىء أقوى وأشد متعة من الفطرة الطيبة ، إذا لازمها الإخلاص(٦٢) . إن الرجل الصالح حقاً لا تؤثر فيه مصائب الدهر ، ومهما يصبه من الشر لا يسلبه نفسه :

« هل هذا (الشر) الذى أصابك يمنعك أن تكون عادلا ، كريماً ، معتدلا ، حصيف الرأى . . . متواضعاً ، حراً ؟ . . . ولنفرض أن الناس قد لعنوك ، أو قتلوك ، أو مزقوك إرباً ! فماذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يبقى طاهراً ، حكيما ، متزناً ، عادلا ؟ وإذا وقف الإنسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه ، فإن النبع لا يقف عن إرسال الماء النظيف وإذا دنسه أو رمى فيه الأقذار ، فسرعان ما يلقى بها إلى خارجها ولا يتدنس بها مرة أخرى . . . ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق هذا المبدأ القائل : إن ذلك ليس شقاء حل بك ، بل إن الصبر عليه صبر الكرام هو

السعادة بعينها . . . ألا ما أقل الأشياء التى إذا حصل عليها الإنسان استطاع أن يحيا حياة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب »(٦٣) .

بيد أن حياة ماركس لم تكن تتصف بالهدوء ؛ فلقد اضطر أن يقتل الألمان وهو يكتب هذا « الإنجيل الخامس » ، وأن يلقى الموت آخر الأمر دون أن يجد عزاء فى الابن الذى سيخلفه ، وألا يكون له أمل فى أن يحظى بالسعادة بعد مماته ، لأن النفس والجسم على السواء ، على حد قوله ، يعودان إلى عناصرهما الأولى :

« فكما أن تبدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المكان لأجسام أخرى كتب عليها الموت ، فكذلك تتبدل الأرواح التى تنتقل إلى الهواء وتتبدد . . . وتتوزع فى عقل العالم الأصلى وتخلى مكانها إلى أرواح جديدة(٦٤) . . . لقد وجدت أنت بوصفك جزءاً من كل . . . وسوف تفنى فى ذلك الذى أخرجك . . . وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة . . . فاجتز إذن هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصل هادئاً إلى الطبيعة ، واختم رحلتك وأنت راض ، وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج ، وتبارك الطبيعة التى أخرجتها ، وتثنى على الشجرة التى حملتها» (٦٥) .

الفصل السادس

كمـــودس

ولما أقبل ضابط الحرس يسأل ماركس وهو على فراش الموت عن كلمة السر لذلك اليوم أجابه بقوله : « اذهب إلى الشمس المشرقة ؛ أما شمسى فهى غاربة » . وكانت الشمس المشرقة وقتئذ فى التاسعة عشرة من العمر ، وكانت هى فتى متين البنية قوى الجسم ، جريئاً ، لا يصده شىء عما يريد ، وليس له وازع من خلق أو خوف . ولقد كان الإنسان يتوقع أن يرى فيه أكثر مما يرى فى ماركس ، القديس العليل ، وأن يراه أكثر مما يرى ماركس ينهج سياسة الحرب إلى النصر أو الموت . لكن الذى حدث أنه عرض من فوره الصلح على الأعداء . وكان ما عرضه من الشروط أن ينسحبوا من الأراضى المجاورة لنهر الدانوب ، وأن يسلموا معظم أسلحتهم ، ويعيدوا جميع الأسرى والفارين من الرومان ، وأن يؤدوا إلى رومة جزية سنوية من الحبوب ، وأن يُقنعوا ثلاثة عشر ألفاً من جنودهم بالتطوع فى الفيالق الرومانية(٦٦) . ولامته رومة كلها على فعلته هذه ما عدا الشعب . فأما قواده فقد استشاطوا غضباً لأنه سمح للفريسة الواقعة فى الشرك أن تفلت منه لتقاتلهم مرة أخرى . على أن قبائل أراضى الدانوب لم تسبب قط متاعب للإمبراطورية فى عهد كمودس .

والحق أن الزعيم الشاب ، وإن لم يكن جبانا خوار العود ، كان قد شهد كفايته من الحروب ، وكان فى حاجة إلى السلم ليستمتع بالحياة فى رومة . فلما عاد إلى عاصمة ملكه انتهر مجلس الشيوخ ، وأثقل العامة بالعطايا التى لم يعهدوا مثلها من قبل — فوهب كل مواطن ٧٢٥ دينارا . ولما لم يجد فى السياسة ميداناً يظهر فيه شدة بأسه عمد إلى صيد الوحوش فى الضياع الإمبراطورية ، وبرع

فى استعمال السيف والقوس براعة اعتزم معها أن يظهرها أمام الجماهير . فغادر القصر وعاش فى مدرسة المجالدين فترة من الزمان ، وأخذ يسوق المركبات فى مباريات السباق ، ويصارع الحيوانات والرجال فى المجتلد(٦٧) . ولا حاجة إلى القول بأن من كانوا يتبارون معه كانوا يحرصون على أن يكون هو الفائز ؛ ولكنه لم يكن يبالى أن يخرج بمفرده قبل الفطور ليقاتل فرس نهر ، أو فيلا ، أو نمراً لا يعبأ قط بالملوك(٦٨) . وقد بلغ من إتقانه الرماية أن استطاع فى استعراض واحد قتل مائة نمر بمائة سهم . فكان يترك النمر يهاجم مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام . ثم يرميه بسهم فيقتله ، ويترك الرجل سليماً يواجه الموت مرة أخرى(٦٩) . وقد أمر أن تسجل هذه الأعمال المجيدة فى صحيفة الحوادث اليومية ، وأصر على أن يؤدى إليه من خزانة الدولة أجر على كل صراع من الألف الصراع التى قام بها .

ولقد كان المؤرخون أمثال تاستس ، الذين لا بد لنا من الرجوع إليهم فى هذا الموضوع ، ينظرون إلى هذه الأعمال بعين الأشراف الحانقين ، ويحكمون عليها حسب تقاليدهم ؛ ولهذا فإنا لا نعرف كم من العجائب التى يروونها تاريخ صحيح ، وكم منها أملته الرغبة فى التشهير به والثأر منه . فهم يؤكدون لنا أن كمودس كان يسكر ويقامر ، ويبدد أموال الدولة ، وأن فى حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام ، وأنه يحاو له أن يكون امرأة فى بعض الأحيان ، أو فى القليل أن يلبس ثياب النساء حتى فى الألعاب العامة نفسها . وقد رووا لنا عنه قصصاً من القسوة لا يقبلها عقل . فيقولون مثلا إن كمودس أمر أحد كهنة بلونا Bellona أن يبتر ذراعه ليبرهن بقطعها على تقواه ، وإنه أرغم بعض النساء اللائى نذرن أنفسهن لخدمة إيزيس أن يضرين صدورهن بثمار البلوط المخروطية حتى يمتن ، وإنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهراوة هرقل التى كان يمسكها بيده ، وإنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه وحداً بعد واحد . . .(٧٠) ويلوح أن إحدى عشيقاته كانت مسيحية وأنه عفا من أجلها عن بعض المسيحيين الذين حكم عليهم بالعمل فى مناجم سردينية

ويوحى إخلاص هذه السيدة لكمودس بأن هذا الرجل ، الذى كان أشد وحشية من الوحوش الضارية ، لم يكن مجرداً من عناصر طيبة غفل عن ذكرها التاريخ .

وكان خوفه من الاغتيال يدفعه ، كما كان يدفع أسلافه ، إلى أقسى ضروب الوحشية . من ذلك أن عمته لوسلا Lucilla ائتمرت به لقتله فلما كشف المؤامرة أمر بقتلها ، كما أمر بقتل عدد كبير جداً من ذوى المقامات العالية ، ثبت عليهم الاشتراك فى المؤامرة أو حامت حولهم شبهة الاشتراك فيها . وقد بلغ من عدد القتلى أنه لم يكد يبقى على قيد الحياة أحد من ذوى المكانة فى أيام ماركس . وعاد المخبرون إلى نشاطهم ومكانتهم بعد أن كادوا يختفون من رومة قرناً كاملا ، وساد المدينة عهد جديد من عهود الإرهاب . وعين كمودس پرنيس Perennis رئيساً للحرس البريتورى وأسلمه أزمة الحكم ثم استسلم هو (على حـــد قول الرواة) إلى الفسق والفجور ، وحكم پرنيس البلاد حكما حازما ولكنه كان حكما صارما خالياً من الرحمة ؛ فنظم حكما للإرهاب قتل فيـــه جميع معارضيه . وظن الإمبراطور أن پرنيس يعتزم اغتصاب العرش لنفسه ، فأسلم هذا السيجانس التانى(*) إلى مجلس الشيوخ . وتورط المجلس نفسه فى طائفة من أعمال الانتقام المتأجج الخالى من الرحمة . وخلف پرنيس فى رياسة الحرس البريتورى معتوق يدعى كليندر Cleander(١٨٥) ، وبزه فى الفساد والقسوة ، فكان أى منصب من المناصب يناله من يؤدى نظيره رشوة طيبة ، وكان من المستطاع إلغاء أى حكم تصدره أية محكمة والحصول على حكم يناقضه ، وقد أعـــدم بأمره الشيوخ والفرسان بعد أن اتهموا بالخيانة أو بانتقاد أعماله ، فلما ضاق الشعب به ذرعاً حاصر الغوغاء فى عام ١٩٠ القصر الذى كان يقيم فيه كمودس وطلبوا إعدام كليندر . وأجابهم الإمبراطور

(*) يشبهه المؤلف بلوسيوس إيلوس سيجانس رئيس الحرس الإمبراطورى عام ٣١ م ؟ .
(المترجم)

إلى ما طلبوا ، وعين ليتس Laetus بدلا منه . وظل ليتس يصرف الأمور ثلاث سنين أيقن بعدها أن منيته قد دنت ، فقد وقع فى يده مصادفة ثبت بأسماء المحكوم بإعدامهم ، وكان يحوى أسماء أنصاره وأصدقائه ومارسيا Marcia . فلما كان آخر يوم من عام ١٩٢ قدمت مارسيا لكمودس كأساً من السم ، ولما أبطأ مفعول السم ، خنقه اللاعب الذى كان قد أبقاه فى الحمام ليثاقفه ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والثلاثين من العمر .

ولنعد إلى الوراء قليلا فنقول إن رومة حين مات ماركس كانت قد بلغت أوج عظمتها وبدأت فى الاضمحلال . فقد امتدت حدودها إلى ما وراء نهر الدانوب ، ووصلت إلى إسكتلندة ، والصحراء الكبرى ، وجبال القوقاز ، وروسيا ، وأبواب پارثيا ، وكانت قد وهبت هـــذا الخليط المضطرب من الشعوب والأديان وحدة ، إن لم تكن فى اللغة والثقافة ، فقد كانت فى القليل وحدة فى الاقتصاد والتشريع . وقد صاغت منها مجموعة عظيمة من الأمم المرتبطة برباط واحد ؛ وكان تبادل السلع يجرى فى داخلها حراً موفوراً بدرجة لم يكن لها نظير من قبل ؛ وظلت قرنين من الزمان تصد البرابرة عن هذه الدولة العظيمة وتهبها الأمن والسلام . وكان عالم الجنس الأبيض ينظر إليها على أنها مركز العالم كله ، وأنها المدينة الخالدة القادرة على كل شىء . ولم يشهد العالم فى عصر من العصور السابقة مثل ما شهده فيها من الثراء ، والعظمة والسلطان .

وفى وسط هذا الرخاء الذى كانت مظاهرة تتألق فى رومة خلال هـــذا القرن الثانى كانت تنبت جميع بذور الأزمات التى قضت على إيطاليا فى القرن الثالث . وكانت لماركس اليـــد الطولى فى خلق هذه الأزمات لأنه رشح كمودس للجلوس على العرش من بعده ، ولأن ما خاضه من الحروب زاد السلطة تركيزاً فى يدى الإمبراطور . فقد احتفظ كمودس فى زمن السلم بالسلطات التى وضعها أورليوس فى يده زمن الحرب . فذوى غصن الاستقلال الفردى والمحلى ، والابتكار والأنفة

بسبب نماء سلطان الدولة واتساع دائرة اختصاصها ، ونضبت موارد ثروة الأمم بما فرض عليها من الضرائب التى أخذت أعباؤها تزداد زيادة مستمرة على مر الأيام ، لكى تقام بها بيروقراطية تضاعف نفسها ، وبسبب حروب العدوان التى ما فتئت الدولة تثير عجاجها للدفاع عن نفسها . وأخذت ثروة إيطاليا المعدنية تتناقص(٧) ، وقضت الأوبئة والمجاعات على الكثيرين من أهلها ، وظهر عجز نظام الزراعة باستخدام الأرقاء ، وأقفرت خزانة الدولة من الأموال وانحطت قيمة العملة بسبب الزيادة المطردة فى نفقات الحكومات وفى إعانة العجزة والمساكين . وأخذت الصناعات الإيطالية تخسر أسواقها فى الولايات لمنافسة الولايات نفسها لهذه الصناعة ، ولم توضع قط سياسة اقتصادية حكيمة لتعوض البلاد عن التجارة الأجنبية الكاسدة بتوزيع قوة الشراء فى داخل البلاد على نطاق أوسع من ذى قبل . وبينا كان هذا يحدث فى إيطاليا نفسها كانت الولايات قد أخذت تفيق مما أصابها من جراء انتزاع ثروتها على أيدى صلا ، وبمبى ، وقيصر ، وكاسيوس ، وبروتس ، وأنطونيوس ؛ فعاد إليها حذقها القديم ، وازدهرت صناعاتها ، وأخذت ثروتها الجديدة تعين بالمال العلم والفلسفة والفن . وسد أبناؤها ما حدث فى الفيالق من فراغ ، وعقدت أولوية هذه الفيالق للقواد من أهلها ؛ وما لبثت جيوش الولايات أن وضعت إيطاليا تحت رحمتها وعينت قوادها أباطرة ، وانقضى عهد الفتوح وانقلبت الآية وأخذ المغلوبون من ذلك الحين يبتعلون الغالبين .

وكأنما أدرك عقل رومة هذه النذر والمشاكل ، فاستسلم فى أواخر أيام الأنطونيين إلى عهد من الكلل الثقافى والروحى . وكان حرمان الجمعيات الشعبية أولا ثم مجلس الشيوخ بعدئذ من سلطانها حرمانا يكاد أن يكون كاملا قد ذهب بالحافز الذهنى الذى ينبعث من النشاط السياسى الحر ، ومن الشعور الواسع الانتشار بالحرية والسلطان : وإذ كانت السلطة كلها تقريباً قد تركزت فى يد الزعيم فقد ألقى المواطنون عليه التبعة كلها تقريباً ، فانزوى عدد متزايد

منهم فى أسرهم ، وقصروا جهودهم على شئونهم الخاصة ؛ وأصبح المواطنون ذرات ، وأخذ المجتمع يتمزق من داخله إرباً فى الوقت الذى لاح فيه أن الوحدة على أتم ما تكون . وخاب رجاء الناس فى الملكية ، كما خاب رجاؤهم من قبل فى الدمقراطية ، وكثيراً ما كانت « أفكار » أورليوس « الذهبية » أفكاراً من الرصاص ، يزيدها ثقلا ظنه أن مشاكل رومة مستعصية على الحل ، وأن البرابرة الذين يتضاعف عددهم بلا انقطاع لن تستطيع سلالة عظيمة جانحة إلى السلم أن تصمد لهم زمناً طويلا . وأخذت الرواقية ، التى بدأت عهدها بالدعوة إلى القوة ، تدعو الآن إلى الاستسلام للمقادير ، وعقد الفلاسفة كلهم تقريباً الصلح مع الدين . وبعد أن ظلت الطبقات العليا أربعمائة عام تتخذ الرواقية بديلا من الدين ، أطرحت هذه الطبقات الآن ذلك البديل ، وأدارت الفئة الحاكمة ظهرها إلى الفلاسفة وولت وجهها شطر مذابح الآلهة . على أن الوثنية هى الأخرى كانت تلفظ آخر أنفاسها . فقد كانت كإيطاليا تتعش بفضل المعونة الحكومية ، فلما امتنعت عنها هذه المعونة أوشكت قواها أن تخور ؛ لقد غلبت هى الفلسفة ، ولكن أرباضها أخذت قبل ذلك العهد تستمع فى خشوع إلى أسماء الآلهة الغازية . وكان هذا العصر عصر البعث للولايات والنصر المؤزر الذى يتجاوز حدود العقل للمسيحية .

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال فى الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER XI

1. Suetonius' "Augustns," 33.
2. Dio, liv, 17.
3. Ibid., lv, 4.
4. Suetonius, 40.
5. Gibbon, E., *Decline and Fall of lhe Roman Empire*, ed. Bury, I, 65.
6. Suetonius, 23 ; Dio, lxi, 17.
7. Plutarch. *Moralia*, 207 D.
8. Charlesworth, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, 8.
9. Suetonius, 41.
10. Ibid., 42.
12. Augustus, *Res gestea*, iii, 21.
13. Dio, lv, 25.
14. Suetonius, 58.
16. Pliny, xiv, 5.
18. Cf. Himes, N., *Medical History of Contraception*, 85f and 188.
19. Dio. liv, 19.
20. Tacitus, *Annals*, xv, 19.
21. Ibid., iii, 25.
22. Horace, *Odes*, lii, 24.
23. Davis, *Influence of Wealth*, 304.
24. Gellius, x, 2.2.
25. Ibid.
26. Dio, lv, I.
27. Ovid, *Ars Amatoria*, 637.
28. Augustus, *Res gestae*, ii, 10.
29. Buchan; 286.
30. Suetonius, 76-83.
31. Ibid., 81 ; Dio, lii, 30.
32. Snetonius. 76.
33. Ibid., 84.
34. Ibid., 90-2.
35. Ferrero, IV, 175.
36, Plutarch, *Moralia*. 207C
37. Suetonius, 64.
38. Dio, lvii, 2.
39. Suetonius, 64.
40. Macrobius, *Saturnalia*, ii, 5, *ad finem* : "I never take on a passenger unless the vessel is alredy full."
41. Seneca, *Moral Essays*, III, vi. 32. 1.
42. Suetonius, 99.

CHAPTER XII

1. Macrobius, ii, 4.
2. Horace, *Epistles*, ii, 1. 117.
3. Jnvenal, *Satires*, i, 2 ; iii, 9.
4. Martial, *Epigrames*, i, 67, 118 ; Friedländer, III, 37.
4a. Lanciani, *Ancient Rome*, 183.
5. Ovid., *Tristia*, i, 1.105.
6. Tacitus *De oratorisbus*, 13.
8. Virgil. *Eclogues*, i, 46.
9. Ibid., i, ix.
10. Suetonius, *On Poets*, "Virgil,"9.
11. Vipgil, *Gèorgics*, iii, 284.
12. Ibid., i, 145.
13. Il, 490.
14. In Duff, *Literary History of Rome*, 455.

15. *Georgies*, iii, 46.
16. *Aeneid*, vi, 860 f ; Suetonius, "Virgil," 31
17. *Aeneid*, ii, 293.
18. Ibid., iv, 331-61.
19. VI, 126·
20. VI, 852.
21. IV, 508.
22. Suetonius, 230.
23. Ibid., 43.
24. Voltaire *Philosophical Dictionnry*. art. *Epic Poetry*.
25. Suetonius, *On Poets*, "Horace"
26. Horace, *odes*, iii, 2.
27. *Epodes*, ii, 241.
28. *Satires*, i, 1.
28a. *Epistles*, i, 16 ; Rostovizeff, *Social and Ecomomic of the Roman Empire Empire*, 61.
29. Horace, *Satires*, ii, 5.
30. Ibid., ii, 7.105.
31, Ibid., 23.
32. I, 1.69.
33. *Odes*, ii, 10.
34. *Satires*, i, 1.105.
35. Ibid., ii, 1.1,
36. *Odes*, iii, 29.12.
37. *Satires*, ii. 660.
39. *Odes*, iii, 16.29.
40. *Epodes*, ii, 1.
41. Petronius, *Satyricon*, 118.
42. *Odes*, ii, 11.
43. I, 9.
44. I, 28.
45. I, 35.
46. III, 30.
47. *Ars poetica*, 139.
48. Ibid, 343.
49. Ibid., 102.
50. *Epistles*, i, 6.1.
51. *Odes*, ii, 3.
52, Ibid., ii, 10.
53. *Satires*, ii, 7,83.
54. *Odes*, iii, 3.
55. *Epistles*, i, 4. 16 ; cf. i, 17
56. *Salires*. ii, 6.93.
57. *Epistles*, ii, 2.55.
58. *Odes*, ii, 14.
59. *Satires*, i, 1.117.
60. *Epistles*, ii 2.214.
61. *Odes*, ii, 17.
63. Taine, H., *Essai sur Tite Live,1*.
64. Pliny, *Natural History*, dedication.
65. Taine, I.c., 10.
66. E.g., Livy, ii, 48.
67. E.g., cf. Livy, xiv, 12 with Polybius, xxxix 27 ; or Livy, xxiv, 34 with Polybius, viii, 5,
68. Pliny, *Letters*, ii, 3.
69. Tibullus, i, 1.
70. Ibid., i, 6.
71. I., 3, 10.
72. Propertius, ii, 57.
73. Ibid., ii, 6.
74. I, 8.
75. Ovid, *Trisia*, iv, 10.
76. Ovid. *Ars amatoria*, 157.
77. Ibid., 99.
78. Ibid, 171.
79. *Amores*, ii, 4.
80. Ibid., i 1 ; ii, 18.
81. II, 1.
82. I, 4.
83. II, 5.
84. II, 10.
85. III, 7 ; ii, 10.
86. *Ars amatoria*, 97.
90. *Remedia amoris*, 183.
91. Ibid., 194.
92. *Heroides*, iv.
93. *Tristia*, ii, 103.
94. *Ex Ponto*, iv, 641.

5. *Tristia*, i, 1:iii 8.
6. Ibid., iii, 3.15 ; *Ex Ponto*, 1,447.

CHAPTER XIII

1. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 108.
2. Suetonins, "Tiberius." 68.
3. Ibid., 69.
4. Tacitus, *Annals*, i, 11.
5. Suetonius, 23.
6. Dio, lvii, 18.
7. Ibid., 6; Suetonius, 30 ; Tacitus,
8. Suetonius, 27.
9. Tacitus, l.c.
10. Suetonius, 32.
11. Ferrero, G., *Women of the Caesars*, 136.
12. Tacitns, ii, 50.
13. Ibid., iv, 57.
14. Dio, lvii, 11.
15. Ferrero, *Wouen*, 140.
16. Tacitus, iv, 57; Suetonius, 42-4.
17. CAH X. 638.
18. Tacitus, iv, 58.
19. Suetonius, 60.
20. Tacitus, iv, 70.
21. Ibid., vi, 50.
22. Mommsen, T., *Provinces of the Roman Empire*, II, 187.
23. Josephus, *Antiquities*, xix, 1.15.
24. Suetonius, "Gaius," 50-1.
25. Ibid.
26. Dio, lix, 5.
27. Suetonius, "Gaius," 29, 32.
28. Dio, lix, 26.
29. Suetonius, 24.
30. Ibid.
31. Sencecs *Ad Helviam*, x. 4.
32. Suetonius, 40.
33. Ibid., 38.
4. Ibid., 30.
35. Dio. lix, 3.
36. Suetonius, 27.
37. For a defense of Caligula of. Balsdon, *The Emperor Gausi* 33 etc.
39. Dio, lix, 28.
40. Balsdon, 161.
41. Ibid., 168.
42. Dio, lix, 29.
43. Suetonius, "Claudius," 29.
44. Dio, lx, 10.
45. Suetonius, 21.
46. Senca, *Apoclocyntosis*, 3.
47. Tacitus. xii, 53.
48. Suetonius, 28.
49. Brittain. 244.
50. Suetonius, 37 ; Dio, lx, 14.
51. Suetonius, 50.
52. Dio, lx, 18.
53. Tacitus, xi, 18.
54. Ibid., 25.
55. Dio, lxi, 31.
56. Ferrero, *Women*, 226.
57. Buchan, 247.
58. Tacitus, xi, 25.
59. Pliny, *Nat, Hist.*, ix, 117.
60. Tacitus, xiii, 43.
61. Dio, lxi, 34.
62. Ibid., 2.
63. Suetonius, "Nero," 52.
64. Dio, lxi, 3.
65. Tacitus, xiii, 4.
66. Henderson, B., *Life and Principate of the Emperor Nero*, 75.
67. Tacitus, xv, 48.
68. Suetonius, 56.
60. Ibid., 27.
70. Tacitus. xvi, 18.
71 Dio, lxii, 15; 7 lxi, Suetonius, 26.
72. Dio, lxii, 14 ; Tactitus. xiv, 5. adds that some writers question the story.

73. Tacitus, xiv, 10.
74. Ibid., xiii, 3.
75. Suetonius, 20.
76. Ibid., 41 ; Dio, lxiii, 26.
77. Suetonius, 52.
78. Ibid., 11.
79. Tacitus, xiv, 60.
80. CAH, X, 722.
81. Tacitus, xv, 44.
82. Ibid., xiv, 6 ; Suetonius, 25.
83. Dio, lxii, 27; Suetonius, 27.
84. Tacitus xvi, 18.
85. Suetonius, 22.
86. Ibid.
87. Dio, lxiii, 23.
88. Suetouius, 43.
89. Ibid , 57.
90. Sutonius, "Galba," 23.
91. Tacitus, *Histories*, i, 49.
92. Suetonius, "Otho," 5.
93. Tacitus, *Hist.*, iii, 67.
94. Suetonius, " Vitellius," 17.
95. Suetonins, "Vespasian," 13.
96. Ibid., 16.
97. Dio, lxv, 14.
98. Suetonius, 18.
99. Ibid., 21.
100. Tacitus, *Hist*, ii, 2.
101. Suetonius. 23-4.
102. Snetonius, "Titus," 8.
103. Suetonius, "Domitian," 18.
104. Dio, lxvi, 26.
105. Suetonius, 22; Dio, lxvii, 6.
106. Frank, *Economic Survey*, V, 56.
107. Dio. lxvii, 14.
108. Suetonius, 10.

CHAPTER XIV

1. Lucan, *Pharsalia*, ii 67.
2. Ibid., i, 128.
3. Petronius, *Epigrams*, frag. 22 in Robertson, J. M., *Short History of freethought*, I, 211.
4. Petronius, *Satyricon*, 11.
5. Ibid, 48.
6. 71.
7. 35, 40, 47.
8. 74.
9. Seneca in Boissier, G., *La réligion romaine*, II, 204.
10. Tacitus, *Annals*, xiv, 59; xvi, 34.
11. Lucian, *Icaromenippus*, 4.
12. Seneca, *Epistulae Morales*, xii; *Moral Essays*, III, vii, 11.1.
13. Monroe, *Source Book*, 401.
14. Quintilian, *Institutes*, x, 1.125.
15. Dio, lxii, 2.
16. Friedländer., III, 238,
17. Tacitus, *Annals*, xiii, 42.
18. Senceca, *De vita beata*, xvii-xvii.
19. Davis, *Influence of Wealth*, 154.
20. Seneca, *Epist* xv.
21. *De vita beata*. xv.
22. *De clementia*, i, 3.
24. *Epist* vii.
25. Tacitus, *Annals*, xviii, 2.
27. Boissier, *Tacitas*, 11.
28. Seneca, *Epist*, lxxvi.
30. Seneca, *Epist.*, lxxv.
31. Ibid., vii.
32. XXVI.
33. *De providentia*, ii, 6.
34. *Epist.*, xli.
36. *De providentia*, v. 8.
37. *Epist.* xxxi.
38. Ibid., ce ; *ad Marciam*, xxiv, 3.
39. In Henderson, *Nero*, 309.
40. *Epist.*, lxxii and iii.
41. Ibid., lxxii.
44. XXXIII.
45. *De brevitate vitae*, xiv.
46. *Epist.*, lxix.

47. Ibid., ii.
48. VII ; XXV.
49. XXIII.
50. LXX.
51. *De ira*, v. 15.
52. *Epist.*, lviii.
53. Ibid., lxi.
54. *De ira*, ii, 34.
55. *Epist*, i, lxi.
56. Tertullian, *De anima*, xx.
57. In Acton, Lord, *History of Freedom*, 25.
58. *Epist.*, xxxi.
59. Gummere, R. M. *Seneca the Philosopher*, 131.
60. Seneca, *Medea*, 864.
61. *Quaestiones naturales*, vii, 30-33.
62. Ibid., vii, 25, 30.
63. Pliny, xxxvi, 15.
64. Ibid,, ii, 5.
65. Plutarch, "Sertorius."
66. Pliny's *Letters*, iii, 5.
67. Pliny, *Nat. Hist.*, iii, 6.
68. Ibid., ii, 5.
69. II, 30.
70. II. 33.
71. II, 6, 64.
72. II, 90-92.
73. II, 63.
74. XXXIV, 39.
75. XXXVII, 27.
76. XIX, 4.
77. XXVIII, 76
86. Pliny, ii, 5, 117.
87. XXXIII. 13.
88. II, 5.
89. VII, 56.
90. XXVIII, 7.
91. VIII, 67.
92. VII, 13.
93. XVIII, 78 f.
94. II. 57.
95. Jones, W. H. S. *Malaria and Greek History*, 61.
96. Pliny's *Letters*, i, 12.
97. Castiglione, 237.
98. Tacitus *Hist.*, iv, 81; Suetonius pasian" 7.
99. Dill, Sir S. *Roman Society from Nero to Marcus Aurelius* 92.
100. Pliny, *Nat. Hist.*, xxix. 8.
101. Luncian, "To an Illiterate Book-Fancier," 29.
102. Pliny, xxvi, 7 - 8 ; Castiglione, 200 ; Garrison, *History of Medicine*, 106.
103. Castigolione, 233,240.
104. Ibid., 226.
105. Soranus in Friedländer, I 171.
106. Castiglione 237 ; Garrison, 118.
107. Bailey, C., *Legacy of Rome*, 291; Williams, H.S., *History of Science*, I, 274.
108. Pliny, xxviii, 2.
109. Ibid., 8.
110. Garrison, 119.

116. Balley, 284.
117. Quintillian, vi, pref.
118. I, 12. 17.
119. I, 10·36.
120. X, 3.9, 19.
121. X, 4.1.
122. II, 12.7.
123. II, 5.21.
124. Juvenal, vil, 82.
126. Martial, xi, 43, 104.
127. II. 53·
128. IV, 49.
129. I, 16.
130. X, 4.
131. IV, 4.
132. IX, 37.
133. I, 32 ; III, 65.
134. I, 32.
135. E g., ix, 27.
136. XI, 16.
137. III, 69.
138. Pliny's *Letters*, iii, 21.

CHAPTER XV

1. Coiumeila, *Dere, rustica*. i 3.12.
2. In Davis, *Influence of Wealth*, 144.
3. Pliny, *Nat. Hist.*, xvii 4 ; Heitland 224. Frank. *Economic Survey*, V. 176.
4. Columella, iii, 3.
5. Strabo, v. 4. 3.
6. Frank. V, 158.
7. Pliny, xv, 68-8?.
8. Columella, iii, 8.
9. Rostovtzeff, *Roman Empire* 182-3
10. Suetonins, "Domitian," 7.
11. Cato *De agricultura*, 144.
12. Pliny, xix, 2.
13. Paul-Louis, 274-6.
14. Tacitus' *Agricola*, 12.
15. Pliny, ii, 108-9.
15a Ammianus Marcellinus, xxii.4.15
16. *Encyclopaedia Britanica*, V,868.
17. Paul-Louis, 287.
18. Frank, V, 229.
19. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 252.
20. Haskell. H. J., *New Deal in Old Rome*, 24-6.
21. Scott. S. P.' *Civil Law*, Fragments of Ulpian in Justinian, *Digest*, iii, 2.4.
22. Friedländer, I, 289-91.
23. Gibbon, Everyman Lib. ed., I. Bailey, C., *Legacy of Rome*,158.
24. Seneca *Ad Helviam*, vi.
25. Plutarch, *Maralia*, "On Exile," 604A.
26. Hallidy, W. R', *Pagan Background of Early Christianity*, 88.
27. Josephus, *Life*, p. 511.
29. Athenacus, ii, 239.
30. Josephus, *Life*, p. 511.
31. Mommsen, *Provinces*, II, 278.
32. Friedänder I, 286.
33. Pliny, xix, I, 4.
34. Ibid., ii, 57.
35. Cf. the crane pictured on the tomb of the Haterii in the Lateran Museum Rome, in Wickhoff. F. *Romap Art*, p. 50; cf. also Gest, 60, and Bailey. 462.
36. Reid, *Municipalities*, 28.
37. Gest, 110-131.
38. Pliny. xxxvi, 24.
39. Bailey, 290.
40. Frontinus, *Stratagems*, iii, 1.
41. Frontinns, *Aqueducts*, ii 75.
42. Ibid., i 16.
43. In Friedländer I, 13.
44. Carter, F., *Invention of Printing* 86 ; Gibbon, Everyman ed., I 55.

45' Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, 206.
46. CAH, X, 417.
47. Strabo, xvii, 1.3.
48. Pliny' vi, 26, computes Rome's annual payment to India at 550,000,000 sesterces ; but this is probably an exaggeration for elsewhere (xii, 41) he estimates the yearly loss of Rome to India, China, and Arábia at 100,000,000 sesterces each.
49. Hailliday, 97.
50. Tacitns, *Annals*, vi, 16 - 17 : Suetonius, "Tiberius." 48; Davis, *Influence of Wealth*, 1 Renan, in *Lectuces on the Influence of Rome on Christianity*,25, and *The Apostles*, 170 csmpares Tiberius' reliel measures to the Crédit Foncier of France in 1852 ; and Haskell compares the situation with the "easy money" period in the United States, 1923 - 9. the erisis of 1929, and the Reconstruction Finance Corporation (*The New Deal in Old Rome*, 183, 188).
51. Ovid *Gasti*, i 191,
52. In Toynbee, B., *Study of History*, I. 41 n.
53, Davis, a42.
54. Beard, M., *History of the Business Man*, 47.
55. Athenaeus, vi, 104.
56. Seneca *De Clementia*, i 24.
56a. Sandys, Sir J., *Companion to Latin Studies*, 354.
57. Pliny, vii, 40.
58. Friedländer, II, 221.
59. Boissier, *La rêligion romaine*, II, II, 330.
59a. Sence *De ira*, III. 3.
60. Juvenal, vi, 474.
61. Ovid, *Ars amatoria*, 735;*Amores*, I, 14.
62. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 132.
63, Dill, 116.
64. Statius, *Silvae*, ii, 6.
65. Seneca, *Epist.*, xivii, 13.
66. Dill 117.
68. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 105 ; Reid, 323, 521. 328, 521.
69. Toutain, 304.
70. Frank, *Ecoomic Survey*, V, 235.
71. Frank, *Economic History*, V, 235.
72. Petronius, 44.
73. Rostovtzelt, 172 ; Declareul, J., *Rome tke Law Giver*, 269.
74. Pliny, xlii, 23.
74. Pliny, xiii, 23.

CHAPTER XVI

1. Seneca in Friedlander, II, 321.
2. Livy, xxiv, 9 ; Pliny's *Letters*,
3. Strabo, v, 3.8.
4. Juvenal, iii, 235-244..
5. Ibid., v, 268.
6. Martial, cxvii, 7.
7. Friedländer, I, 5.
8. Pliny, xxxv, 45.
9. Friedländer, II, 317, 330.
10. Mau, A., *Pempeii*, 231 ; Rostovzeff, *Roman Empire*, 135 ; Gest
11. Vitruvius, *De architectura*, ii, 21.
12. Seneca, *Epit.*, cxxii.
13. Juvenal, iii, 223.
14. Pliny's *Letters*, ii, 17 ; v. 6.
15. Juvenal, iii, 223.
16. In Boissier'*Rome and Pompeii*119
17. Pliny, *Nat Hist.*, xxxii, 45.
18. Boissier, *Tacitus*, 223.

18a. N. Y. *Times*, Apr. 27, 1943.
19. Mau, 414.
20. Pliny, xxxv, 66; Strabo, xvi, 25.
21. Winckelmann, J., *History of Ancinet Art*, II. 312.
22. Reid' 278.
23. Cf. Strong. *Art. in Ancient Rome*, II, fig. 341.
24. Valerius Maximus, *Factorum et dictorum*, viii, 14.
25. Pliny, xxxv, 37.
26. Cf. Maiuri, A., *Les fresques de Pompeii*, Table XXXIII.
27. Cf. Rostovtzeff, *Mystic Italy passim*.
27a. Pliny, xxxv. 40.

CHAPTER XVII

1. Juvenal, v, 141.
2. Petronius in Henderson, *Nero*, 326.
3. Seneca *Ad Marciam*, xix, 2.
4. Juvenal, vi, 367.
5. Friedländer, I, 238.
6. Cf. Pliny, xxxiv, 11: "They say that if the male organ is rubbed with (oil or gum of) cedar just before coitus, it will prevent impregnation." Cf. also Humes, 85 f, 186.
7. Juvenal, vi, 592.
10. Gatteschi. G., *Restauri della Rome Impeirale*, 64.
11. Gibbon, I, 42; Friedländer, I, 17; Sandy 355 · 7; Davis, 196; Paul-Louis, 15, 227.
12. Tacitus, *Annals*, xiii, 27.
13. Vogelstein, H., *Rome*, 10.
14. Cicero, *Pro L., Flacco* 28.
15. Edersheim, A., *Life and Times of Jesus the Messiah*, I, 67.
16. Tacitus, *Annals*, ii, 85; suetonius "Tiberius, 36.
17. Dio, lvii, 18; Schürer, *History, of the Jewish People* Div. II, Vol. II, 234,
18. Vogelstein, 17.
19. Ibid., 31, 33: Renan, *Lectures*, 50
20. Tacitus, *Annals*, ii, 89; Ammanianus, M., xxii, 5.
21. Dill, 83-4.
22. Dio, ix, 33.
23. Martial, vii., 30.
24. Juvenal, iii, 62.
25. In Bailey, 143.
26. Tacitus, xiv, 60.
27. Juvenal, xiv, 44.
28. Gellius, xii, 1.
29. *Enc. Brit.*, X, 10.
30. Horace, *Satires*, i 6.75.
31. Pliny's *Letters*, ii, 3.
32. Petronius, 1.
33. Pliny's *Letters*, iv. 3.
34. Ovid, *Ars amatoria*, 98.
35. Juv., ix, 22.
36. Minucius Felix, *Octavius*, 67; Tertullian, *Apology*, 15.
37. Horaces, *Epodes*, xi.
38. Martivl, viii, 44; xi, 70,88, etc.; Juv., il, vi' ix.
39. In Friedländer I, 234.
40. Seneca the Elder, *Controversiae* in Friedländer, I, 241.
41. Seneca, *Ad Helviam*, xvi, 3; *Ad Marciam*, xvi 3.
42. Ovid, *Amores*, i, 8:43; iii, 4-37.
43. Friedländer, I, 241.
44. Juv., vi, 228.
45. Ibid., 281.
46. t, 22.
47. Boissier, *La rêligion romaine*, II, 197.
48. Jnv., vi, 248.
49. Martial, *De spectaculis*, vi'
50. Statius, *Silvae*. i. 6.
51. Seneca, *Moral Essays*, i 9.4.
52. Ovid *Ars amatoria*, 113.

53. Martial, x 35.
54. Ibid., i, 14.
55. Tacitus, *Annals*, xvi, 10.
65. Friedländer, I, 265.
57. Tacitus, xiv, 5.
58. Martial, vi, 57.
59. Catullus, lxxxvi.
60. Ovid *Ars*, 158; Kohler, K. *History of Costume*, 118; Pluhl, E: *Masterpices of Greek Drawing*, Fig. 117.
61. Tibullus, i, 8.
62. Juv., vi, 502.
93. Pliny, xxxiii, 12.
64. Quhl and Konar, 498.
65. Martial, ix, 63.
66. Ovid, *Ars*, 160.
67. Pliny, ix, 63.
68. Ibid., xxxviii, 12.
69. IX, 58.
70. Friedländer, II. 181.
71. Pliny, xxxiii, 18.
72. Seneca, *Epist.*, lxxxvi.
73. Pliny, viii, 74.
74. Quintilian, 3.
75. Galen in Friedländer, II. 227. The remainder of this chapter is particularly indebted to Friedländer's devoted accumulation of Roman mores.
76. Juv., vii, 178.
77. Jones, H.S., *Companion to Roman History*, 116; Friedläuder, 1, 12.
78. Seneca, *Epist.* lxxvi.
79. Ker, W.C., in Martial, I, 214n.
80. Gardiner, E. N., *Athletis of the Ancient World*, 230.
81. Pliny, xxviii, 51.
82. *Journal of the American Medical Association*, Aug. 1, 1942, 1089.
83. Ovid, *Ars*, 165; *Tristia*, ii, 477-80.
84. Pliny, viii, 51 77.
85. Ibid., ix, 30, 31.
86. Ibid., 39.
87. VIII, 82.
88. VIII, 77.
89. Seneca *Ad Helviam*, x, 9.
90. Ibid, 3.
91. Sandys, 502.
92. Mantzius, K., *History of Theatrical Art*, I, 217.
93. Suetouius, "Vespasian," 19.
94. Mantzius, I, 218.
95. Boissier, *La régligion romaine*, II, 215.
96. Cicero *Pro Murena* 6.
97. Lang, P. N. *Music in Western Civilization*, 36.
98. Ammianus, xiv, 6.
99. Martial, v, 78.
100. Ammianus, xiv, 6.
101. Seneca, *Epist.*, lxxxviii.
102. Philostratus, *Life of Apollonius of Tyana*, v, 21.
103. Lang, 3.
104. Virgil, *Aeneid*, v, 362f.
105. Friepländer, II, 5.
106. Dio, lxi, 33.
107. Lecky, W. E., *History of European Morals*, I, 280.
108. Friedännder, II, 5.
109. Pliny, viii, 70.
110. Friedländer, II, 5.
111. Boissier, *Tacitus*, 246.
112. Martial, *De spectaculis*, vii.
113. Friedänder, II, 43.
114. Ibid., 49.
115. Epicletns, *Discourses*, i 27-37.
116. Seneca, *Epist.*, lxx.
118. Juv., iii, 36.
119. Pliny II, *Panegyricus*, xxxiii.
120. Tacitus, *Annals*, xiv.
121. Cicero, *Letters*, vii, , to Marcus, 55. B. C.

122. Seneca, *Epist.*, vii, xcv.
123. In St. Augustine, *City of God*
124. Tertnlian, *Apology*, 15.
125. Juv., xiii, 35.
126. Abbott, *Common People of Ancient Rome*, 88; Dill, 498.

CHAPTER XVIII

1. Bury, J. B., *Hiltory of the Roman Empire*, 527.
2. Justinian, *Digest* i, 1, in Scott, *The Civil Law*.
3. Gaius, *Institutes*, i, 8.
4. Maine, Sir H., *Ancient Law*. This generalization has been questioned, but seems subatantially true.
5. Justinian, *Codex*, vii, 16. 1.
6. Gaius, i, 144.
7. Ibid., 145, 194.
8. Buckland, W. W., *Textbook of Roman Law*, 113.
9. Gaius, i, 114.
10. Friedländer, I, 236.
11. Suetonius, "Vespasian," 3; *Hist. Aug.*, "Antoninus," 8; "Aurelius," 29.
12. Castiglione, 227.
13. Gaius, commentary, p. 66.
14. Ibid., p. 64.
15. Gaius, i 56.
16. Davis, *Influence of Wealth*, 211.
17. Tacitus, xiv, 41.
18. Renan, *Marc Aurèle*, 24.
19. Ulpina, in *Digest*, L, 17. 32.
20. Lecky, I, 295.
21. Gaius, iii, 40-1.
22. Cicero *Ad Familiares*, viii, 12,14.
23. Gaius, ii, 157; iii, 2.
24. Maine, 117.
25. Buckland, 64.
26. Caius, iii, 186; iv, 4.
27. Ibid., iv, 11.
28. In Friedländer, I, 165.
29. Ammionus, xxx, 4.
30. Ulpiana in *Digest*, *L*, 13. 1.
31. Quintilian, xii, 1. 25.
32. Pliny's *Letter*, v, 14.
33. Martial, vii, 65.
34. Pliny's *Letters*, ii, 14.
35. Tacitus, *Annals*, xi, 5.
36. David, 125.
37. Pliny's *Letter,s* vi, 33.
38. Juv:, xvi, 42.
39. Juv., xvi, 42.
39. Apuleius, *Golden Ass*, p. 245.
40. Psalms, cxvi, 11; St. Paul, Epistle to the Romans iii, 4.
41. In Taylor, H., Cicero, 77.
42. Quintilian, v. 7. 26.
43. Ibid., vi, 1. 47.
44. *Codex Theodosius*, ix, 35, in Gibbon, II, 120.
45. Gellius, xx, 1, 13.
46. Sallust, *Catiline*, 55.
47. Cicero, *De re publica*, iii, 22; cf. *De offielis*, i, 23; *De legibus*, i, 15.
48. Gaius, i, 1.

CHAPTER XIX

1. Ker, W., in Martial, II, 54n.
2. Dio, ixviii, 13.
3. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
4. Dio, lxviii, 15.
5. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek Word*, 307.
6. In CAH, XI, 201, 855.
7. Pliny II, *Panegyricus*, 50.
8. Justinian, *Digest*, xiviii, 19. 5.
9. Bury *Roman Empire*, 437.
10. Brittan, 366.
11. Wickhoff, 113.
12. Dio, ixix, 1.
13. Hist. *Aug.*, "Hadrian," i, 4.
14. Ibid, xxvi, 1.
15. Ibid.

16. XIV. I.
17. Martial, viii, 70; ix, 26.
18. *Hist Aug.*, "Hadrian" xv, 10.
19. Ibid., xx. 7.
20. Henderson, *Hadrian*, 207.
21. Eusebius, *Ecclesiastical History*, iv, 9.
22. Dio, lxix, 6.
23. Fronio, M., *Correspondence*, A.D. 162 : II, 4.
24. *Hist. Aug.*, "Hadrian" x, 1.
25. Winckimann, I, 327.
26. Bevan, E. R., *House of Seleucus* II. 15.
27. *Hist Aug.*, viii, 3.
29. Simpson. F. M., *History of Architectural Devvelopment*, 123.
30. Dio, lxix, 4;cf. Henderson, 247.
31. Clo, lxix, 8.
32. *Hist Aug.*, xxiv, 8.
33. Merivale, *History of the Romans under the Empire*, VIII, 255.
34. Marcus Aurelius, *Meditations*,16.
35. *Hist. Aug.*, "Antoninus". iv, 8.
36. Ibid., viii, 1.
37. IX. 10.
38. Appian, preface, 7:
39. Bury, 566.
40. Renan, *The Christian Church*,
41. Renan, *Marc Aurèle*, 2.
42. Gibbon, I, 76.
43. Marcus, i 17.
44. Ibid., 1.
45. I, 14.
46. I, 15.
47. I, 14.
48. VII. 70.
49. *Hist Aug.*, "Marcus," xxiii, 4.
50. Frieläuder, III, 191.
51. Waston, P. *Marcus Antoninus*,
52. Castiglione, 244.
53. Galen, in Friedländer, I, 28.
54 Dio, lxii, 14.
55. Ammianus, xxv, 4.
56. Willams, H., I, 280.
57. Renan, *Marc*, 469.
58. Marcus, i, 17.
59. Bury, 547.
60. *Hist, Aug.*, "Marcus," xix. 7
61. Marcus, x, 10.
62. Mommsen, *Provinces*, I, 253.

CHAPTER XX

1. Boissier, *Tacitus*, 2.
2. Tacitus, *Agricola*, 9.
3. Pliny's *Letter*, ii, 1; vi, 16.
4. *Agricola*, end.
5. *Germania*, 25, 27.
6. *Annals*, iii, 65.
7. *Historiae*, i 1.
8. *Agricola*, 4.
9. *Germania*, 34.
10. *Annlas*, xvi, 33.
11. Ibid., iii, 18; vi, 22.
12. *Germania*, i, 33.
13. *Agricola*, 46.
14. *Annalo*, vi, 17.
15. *Agrieola*, 3.
16. *Dialogue on Orators*, 40.
17. *Historiae*, iii, 12, 64.
18. *Agricola*, 18.
19. *Historiae, i* 16.
20. Ibid.
21. Juvenal, i, 147.
23. X, 81.
24. VI, 652.
25. 434.
26. 448.
27. III.
28. XIV, 316.
29. X, 356.
30. Seneca, *De beneficiis*, i, 10; *Epist.*, xcvii.
31. Pliny's *Letters*, iii, 19.

32. V, 3.
33. 8.
34. I, 17.
35. VI, 32.
36. V, 16.
37. I, 16.
38. VII' 19.
39. VII, 20 ; IX, 23.
40. Boissier, *Tacittus*, 19.
41. Oibbon, 1, 57.
42. Pliny's *Letters*, iii, 12.
43. Strong, II. fig. 435.
44. Marcus, ii, 11.
45. VII, 75.
46. Ibid., 9 : iv, 40, 27.
48. II, 17.
49. III, 2.
50. X, 8.
51. IV, 23
52. II, 17.
53. VII, 12.
54. XI, 1.
55. IVIII, 10.
56. IV. 42, 48 ; viii, 21.
57. VII, 3.
58. II, 1.
59. IX, 38 ; vii, 26.
60. VI. 48.
61. 44.
62. XI. 18.
63. IV, 49 ; viii, 61 ; ii, 5.
64. IV, 21; viii. 18; ii, 17.
65. IV, 14, 48 ; ix, 3.
66. Dio, lxxii, 2-3.
67. *Hist. Aug*, "Commodus", 2, 14, 15.
68. Dio, lxxiii, 19
69. *Hist* Aug , 13.
70. Ibid.. 2, 10, 11.
71. Paul-Louis, 215.